سر قوة المسلمين
وضعف الكفار والمنافقين
قراءة على سورة الحشر

د. أحمد مصطفى نصير

شبكة الألوكة
www.alukah.net

سر قوة المسلمين وضعف الكفار والمنافقين

قراءة على سورة الحشر

طرقت سورة الحشر بابا من أبواب السياسة الشرعية في إدارة الدولة التي يعيش فيها المسلمون وغير المسلمون، ليترابط أبناء الدولة الواحدة على أرضها وفقا لقواعد تشريعية تحفظ سلامتها، ويرتبط أبنائها معا بروابط الدم والعرق والنسب والجيرة والإنسانية، بيد أنه لا مكان للخائن فيها، فالحشر – لغة – جمع الناس أو غيرهم [1]، وإذ طرقت هذا الباب فإنها تفتح المجال للحديث عن إسقاط الرعوية الوطنية عن الذميين متى خانوا العهد، أي في الحال الذي يخرم الذميون العهد مع المسلمين، فهل لولي الأمر إخراجهم من الديار وإجلائهم عن المدينة ؟ ويقصد بذلك في هذا الموضع إخراج يهود بني نضير من ديارهم بالمدينة المنورة – باعتبارهم فيروسات توهن جسد الأمة وتمرضه – وحشرهم بين الأمم الأخرى كغرباء لا كأصحاب ديار، فاليهود لا يستقيم أن تكون لهم دولة وهو أغدر الناس وأسرعهم خيانة، فلا سبيل غير حشرهم بين الأمم متفرقين.

وأصل قصة بني النضير [2] أن النبي ﷺ خرج إليهم – وهم طائفة من اليهود – يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما عمرو بن أمية خطأ، فلما وجدوا نبي الله تعالى بينهم أغرهم ذلك وتآمروا على قتله وليغدروا به، قال ابن كثير: قالوا (نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت) ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد – فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه – أي تأخر عليهم – قاموا في طلبه

---

١) معجم ألفاظ القرآن ج ٢ ص ٨٨

٢) وقد بوب لها البخاري بابا بعنوان (باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ) ج ٤ ص ١٤٧٦.

فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال رأيته داخلا المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به [1].

ويعزى إخراجهم إلى خيانتهم رسول الله ﷺ ومحاولتهم قتله على نحو ما سلف بيانه، لما لا وقد قتلوا الأنبياء من قبل، ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (كانت غزوة بني النضير -وهم طائفة من اليهود - على رأس ستة أشهر من وقعة بدر[2]، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال - أي ما قدرت على حمله - إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله فيهم: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) إلى قوله: (لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا)، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا وكان الله قد كتب عليهم ذلك ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأما قوله (لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام)[3]، ثم كان حشرا آخر إلى خيبر ثم أجلاهم عمر من خيبر إلى تيماء وأريحا وذلك حين بلغه عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يبقين دينان بأرض العرب[4]) [5].

وما يزال اليهود يعثون في أرض العرب فسادا بعدما علوا علوا كبيرا كما أخبر بذلك القرآن - ليستقر حشرهم إلى القدس -، ومن المعلوم أن مآلهم حين يجيء وعد الآخرة أن تسوء وجوههم

---

١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ج ٤ ص ٧٥

٢) وذلك على خلاف بين العلماء في تقدير وقت الغزوة هل بعد أحد أم قبلها ؟

بوب البخاري بابا بعنوان: (باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم قال الزهري عن عروة كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد وقول الله تعالى{ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا}،وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد) صحيح البخاري ج١٢ ص ٤٢٠

قال الحافظ في الفتح: وصله عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري أتم من هذا، ولفظه عن الزهري وهو في حديثه عن عروة

٣) رواه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص٥٢٥ رقم ٣٧٩٧ وقال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه - تعليق الذهبي قي التلخيص: على شرط البخاري ومسلم

٤) رواه مالك في الموطأ ج ٢ ص ٨٩٢ رقم ١٥٨٣، والبيهقي في سننه ج ٩ ص ٢٠٨ رقم ١٨٥٣٠، وقال الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته ج ١ ص ٨٧٥ رقم ٨٧٤٦

٥) الروض الأنف ج ١ ص ٣٢٥

ويستأصلهم عباد الله، فهو القائل في كتابه (فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا) (الإسراء/٧).

كما تحدثت عن موضوع تفرع عن موضوعها الأصلي وهو الفئ، فقد أفاء الله تعالى على رسوله والمسلمين أموالهم وديارهم بدون قتال، فما حكم هذه الأموال التي أفاء الله بها على المسلمين ؟ الإجابة في ضوء مبدأين أساسيين:

المبدأ الأول: حظر تداول المال بين الأغنياء إلا بعد استقطاع حقوق الفقراء منها أو أداءها طوعا، فلا يتصور أن يكون في المجتمع الإيماني تفاوت طبقي مفرط يحول دون تجانس وانسجام أبناء الأمة الواحدة، يقول النبي ﷺ (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[1]، وإنما يجب أن يتحقق التضامن الاجتماعي بما يكفل للفرد أيا كانت ديانته الحد الأدنى من العيش الكريم واللائق به كإنسان بصرف النظر عن معتقده أو دينه، فيجوز إخراج الصدقة للكفار تأليفا لقلوبهم [2].

والمبدأ الثاني: ارتقاء التضامن الاجتماعي في مفهومه الإسلامي إلى درجة الإيثار بمعنى أن يفضل الأخ أخيه على نفسه، وهذا من أروع شيم المجتمع المسلم حينما تسمو فيه الأخلاق على قواعد القانون، فلا يتقيد أفراده بما حده القانون من حد أدنى لكفالة الحد الأدنى للكرامة الإنسانية وحسب،وإنما تسمو أخلاقهم لتسبق التشريعات الوضعية والقوانين الآمرة لتحقق أعلى رقي خلقي في الجانب الإنساني.

فلم يكن الصحابة بحاجة لتلك القواعد الآمرة ولا القوانين الصارمة، و لم يكونوا كذلك أسيري فكر اشتراكي ولا مذهب اقتصادي، وإنما كانت أخلاقهم هي الضامن الوحيد لاضطراد الدولة وانتظامها تحقيقا لتكافل اجتماعي شامل، حتى انتهى بهم الحال إلى ضمان الزواج والعمل لمن ليس له زوجة أو عمل، فعن أنس رضي الله عنه قال قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وكان سعد ذا غنى فقال لعبد الرحمن أقاسمك مالي نصفين وأزوجك

---

١) رواه البخاري ج١ ص ٢١ رقم ١٢

٢) الإمام ابن باز: حكم-الصدقة-على-الكافر-غير-المحارب/https://binbaz.org.sa/fatwas/24488

قال بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني على السوق فما رجع حتى استفضل أقطا وسمنا فأتى بـه أهل مترله فمكثنا يسيرا أو ما شاء الله فجاء وعليه وضر من صفرة فقال له النبي ﷺ مهيم قال يـا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار قال ما سقت إليها قال نواة من ذهب أو وزن نواة من ذهب قال أو لم ولو بشاة [1].

ثم عادت السورة إلى موضوعها الأصلي ومن زاوية أخرى ألا وهي كشف المؤامرات والمكايد التي تكاد للإسلام من تحالف المنافقين مع اليهود في المدينة، وبيان أن هذه التحالفات السرية والمؤامرات الباطنية هي أمور يخيب أثرها إزاء وحدة المسلمين وتماسكهم وتوكلهم على الله تعالى، بهذا الاعتبار تستظهر السورة ما وصلوا إليه من ضعف نفسي واضطراب عسكري عندما تآمروا ضد المسلمين، ولئن ظن المسلمون أنهم أقوياء، فإن بدا ذلك في الظاهر فإنهم في الحقيقة من الضـعف بمكـان لا يصدقه عاقل، ولذلك تبين السورة للمسلمين ضعفهم النفسي كي لا يهابوهم أبدا، وتحـذر أهـل الذمة من اليهود أن يغرهم المنافقون لينقلبوا على المسلمين، وتؤكد خسـران مـوقفهم وخـزلان المنافقين لهم، تماما مثل الشيطان حينما يحمل الإنسان على الكفر فيطيعه لكن الشيطان يتـبرأ مـن كفره ويخزله.

وقد انتقلت السورة بعد ذلك لتوجيه الخطاب للجماعة المؤمنة إلى الاستفادة من هذه الأحـداث الجسام لتتذكر تقوى الله والتفكر في آياته وأسمائه وصفاته، وهو توجيه لطيف في ظـل أحـداث سياسية عارمة، حتى لا ينشغل المسلمون بأمور السياسة عن عقيدتهم الإسلامية، فتظل العقيدة هـي الركيزة الأساسية للمنهج الإسلامي ، والركن الأصيل لهذا الدين الذين تبنى عليه جميـع الأحكـام العملية والتشريعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ظل التوجيه الرباني الكريم بما نزل إلينا من الوحي العظيم.

---

١) رواه البخاري ج٧ ص ١٩٩ رقم ١٩٠٨

محاور السورة: -

المحور الأول: مالك الملك يسلط عباده المؤمنين على الخائنين للعهد مع الدولة، الآيات من ١-٧

المحور الثاني: تماسك المسلمين اجتماعيا سر قوتهم العسكرية وشدة بأسهم على أعدائهم ٨-١٠

المحور الثالث: فضح الاتفاقات السرية بين المنافقين واليهود، وبيان ضعف تحالفاتهم العسكرية ١١-١٧

المحور الرابع: العقيدة الإسلامية هي الركيزة الأولى لقوة المسلمين ١٨- ٢١

المحور الخامس: تفرد الله بالملك والعظمة والكبرياء (٢٢-٢٤)

المحور الأول

مالك الملك يسلط عباده المؤمنين على الخائنين للعهد مع الدولة

قال تعالى (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الحشر/١-٦)

ففي قوله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الحشر/١) توطئة لموضوع السورة الرئيسي ذو الصلة بسياسة دولة النبي ﷺ وفي أمر من أخص أمور الحكم،وهو طرد وتشريد الخائنين من أهل الذمة، وإسقاط رعوية الدولة عنهم، فناسب تقديم تسبيح الكون لله للإشعار بأن الأرض لله وليست ملكا لأحد، وإنما يقسم الله الأرزاق على الناس، ويحرمهم منها بعزته وحكمته، وهو ما يتناسب مع موضوع السورة الذي انطوى على الإبعاد والطرد لبني النضير من ديارهم وأموالهم التي هي في الأصل ملك لله تعالى وقد أعاد الله توزيعها وتقسيمها على اليتامى والمساكين وابن السبيل... كفئ بلا قتال، وفي ذلك عقوبة لهم، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء بحكمته.

قوله (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) يدل على أن إخراج الخائنين ليس اختيار اختاره رسول الله ﷺ كان في مكنته أن يتنازل عنه، وإنما هو حكم الله تعالى، قال الشيخ سيد طنطاوي "قصر – سبحانه – إخراجهم عليه مع أن المسلمين قد اشتركوا فى إخراجهم عن طريق محاصرتهم؛ للإشعار بأن السبب الحقيقى فى إخراجهم من ديارهم، هو ما قذفه

الله – تعالى – فى قلوبهم من الرعب... أما محاصرة المؤمنين لهم فهى أسباب فرعية، قد تـــؤدى إلى أخراجهم، وقد لا تؤدى، وللإشعار – أيضا – بأن كل شيء إنما هو بقضاء الله وقدره" [١].

وكان هذا هو أول إجلاء لأهل الذمة منذ إنشاء الدولة الإسلامية الأولى في حياة رسول الله ﷺ، وهم يهود بني النضير، وليس ذلك بآخر إجلاء لليهود، وقد تبعه حشر لهم في أزمنة أخرى، وإجلاء لأماكن أخرى، وهكذا مضت سنة الله تعالى في هؤلاء اليهود أن يشتتهم في الأرض، لتضرب عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة، فهو القائل سبحانه (فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَـــرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)(الأعراف/١٦٦-١٦٨)، قال الثعلبي " هم اليهود بعـــث الله عليهم محمدًا وأمته يقاتلونهم حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية " [٢]، قال الرازي:" هذا تنصيص على أن ذلك العذاب ممدود إلى يوم القيامة "[٣]، فقد ابتلاهم الله بنغص العيش، والتشتيت بين الأمم، ألا ترى أن اليهود لا ينعمون بالعيش الهانئ ولا الاستقرار الهادئ ولا البال المطمئن، ذلك أن ســـنة الله أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يخزيهم ويذيقهم سوء العذاب، ولا يزالون مقطعين مبعثـــرين بـــين الأمم، حتى وإن بدوا أمام الناس في علو واستكبار فلا يزالون غير مستقرين وخائفين غير مهتدين، ألا ترى أنهم حتى في علوهم الكبير مازالوا محشورين بين المسلمين على أرض فلسطين يتوجســـون خيفة أن ينقلب عليهم العرب بين عشية أو ضحاها !، قال الشعراوي " هذا العنصر المشاكس مـــن اليهود سيبقى في الكون كخميرة عكننة إلى أن تقوم الساعة،...ذلك أنَ مهمة الشر في الوجـــود أن يجمع عناصر الخير، ويحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته؛.. ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة"

قوله (مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِـــنْ حَيْـــثُ لَـــمْ يَحْتَسِبُوا) كشف لسر القوة العسكرية لليهود والتي عندما فقدوها اندحروا بأيدي المؤمنين، حيـــث

---

١) الوسيط لسيد طنطاوي ج١ ص ٤١٣٦

٢) تفسير الثعلبي ج١ ص ٩٣١

٣) تفسير الرازي ج ٧ ص ٢٨٤

يهيئون للذين آمنوا الظروف النفسية التي تظهر قوتهم وصعوبة التغلب عليهم، ويمتنعون في حصونهم منذ عهد النبي ﷺ، يخدعون الناس ليظنوا أن هذه الحصون والدروع والموانع عاصية عن الفتح، ولكن هذا استدراج الله لهم، فقد خدعوا أنفسهم بمثل ذلك، فالاحتساب: مبالغة في الحسبان، "فيأخذهم من المكان الذى كانوا يعتقدون أمانهم فيه "[1]، ويأتيهم عباد الله وجنوده الصالحون، و لم يكن ذلك حسبانهم ولا مخططاتهم ولا أفكارهم، لكنه كان في حسبان المسلمين، لأن الله وعد رسوله بذلك [2]فقال سبحانه (فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة/١٣٧)، لكنهم لم يظنوا أن هذا وقته، فلما حان وقته أتى نصر الله للذين آمنوا،فلم تقف أمامه قوتهم ولا حصونهم ولا أسلحتهم.

وفي قوله تعالى: (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) إخبار بأهم عوامل هزيمتهم، وأنها هزيمة نفسية رغم القوة المادية والتجهيزات العسكرية، ولفظ "قذف" يوحي بأن الحالة النفسية السابقة لهم كانت عكس ذلك، و لم يكن بين الحالين غير لحظة، هنا انتابهم الرعب، وتمكن من قلوبهم كالرصاصة، فهم لا يشعرون بالخوف وحسب ولا باليأس وكفى، بل هو خوف ممزوج باليأس والفزع والذعر لدرجة أن ملأ قلوبهم فلا تجد فيها أي إرادة للانتصار وليس فيه غير الخور والجبن والضعف والانتكاس.

ولعل أول ما دبَّ في قلوبهم من الرعب كان من تلك العمليات الاستشهادية التي خطط لها النبي ﷺ حين أمر محمد بن مسلمة أن يقتل زعيمهم كعب بن الأشرف ويغتاله، وكانا أخوين من الرضاعة، فلم يكن ليتورع عن سب رسول الله ﷺ وهجائه وتأليب قريش عليه لمحاربته، فعن النبي ﷺ قال (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله)[3]، فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال (نعم)، فأتاه محمد بن مسلمة فقال إن هذا الرجل – أي النبي ﷺ – قد سألنا صدقة – أي أموال الزكاة – وإنه قد عنانا – أي أرهقنا – وإني قد أتيتك أستسلفك –

---

١) الوسيط في التفسير للسيد طنطاوي ج ١ص٤١٣٧

٢) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ج١ ص ٢١

٣) رواه البخاري ج٨ ص ٤٢٧ رقم ٢٣٢٧

أي أقترض منك لأسد دين الصدقة – قال وأيضا والله لتملنه – أي نمهله من أمره حتى ننظر إلى أي شيء يصير ملكه – قال إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين ؟ – وهو مقدار معين من البلح – فقال كعب: نعم ارهنوني – أي أعطوني شيئا ترهنون به هذا الدين – قالوا أي شيء تريد ؟ قال أرهنوني نساءكم – وهذا دليل على سوء خلقه – قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال فارهنوني أبناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيُسَب أحدهم فيقال رُهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا – أي يعيب الناس على أبنائنا أنهم رهنوا ببضاعة – قال: إنا نرهنك اللأمة – يعني السلاح وهو دليل على أنها أمة تحب الاتجار بالسلاح والنساء والأولاد – فواعده أن يأتيه فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته – أي امرأة كعب – أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة، قالت – أي امرأته – أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم – أي خافت عليه أن يُقتل – قال إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب – وذلك دليل على عصبيته لقومه بصرف النظر عن الحق لأجل أن يقال عنه كذا وكذا – ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين.. فقال إذا ما جاء فإني قائم بشعره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه،.. فنزل إليهم – أي كعب – متوشحا – أي متلبسا بثوبه وسلاحه – وهو ينفح منه ريح الطيب – أي تفوح منه رائحة العطر – فقال محمد بن مسلمة (ما رأيت كاليوم ريحا أي أطيب.. أتأذن لي أن أشم رأسك ؟ قال نعم فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال أتأذن لي ؟ قال نعم فلما استمكن منه قال دونكم فقتلوه ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه) [1]، فلا شك أن مقتل زعيمهم له وقع كبير على جموع اليهود، فيهيج أعصابهم ويثير مشاعرهم، ويقذف في قلوبهم في الخوف والفزع والوهن، والعكس غير صحيح، فقتل شهداء المسلمين يزيد المسلمين قوة وحماسة وعزيمة وتمنيا للموت للحوق بهم في جنة الرضوان، (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران /١٧٠).

---

١) رواه البخاري ج ٤ ص ١٤٨١ رقم ٣٨١١

وكذلك استشرى الرعب في قلوبهم لما حاصرهم النبي ﷺ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة – يعني السلاح..فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء فأجلاهم إلى الشام)[1].

قوله (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ) إخبار بالنتيجة المترتبة على حالتهم النفسية السيئة التي عانوا منها نتيجة حصارهم واغتيال زعمائهم حتى وصل بهم الحال إلى أن خربوا بيوتهم بأيديهم، ليأسهم أن يرجعوا إليها بعدما أجلاهم النبي ﷺ منها، رغبة منهم ألا يتركوا للمسلمين شيئا يرثوه عنهم، لكنها إرادة الله أن يورث الأرض لمن يشاء من عباده، فهو القائل في كتابه العزيز في شأن يهود خيبر، (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) (الأحزاب /٢٧)، فلو كانوا موقنين بالنصر – كما هو الحال بالنسبة المسلمين – لما خربوا بيوتهم وديارهم وأمتعتهم التي لم يقدروا على حملها معهم، لكنهم يخربونها حتى لا ينعم بها المسلمون من بعدهم، وفي ذلك دليل على أنهم مهزومون نفسيا، ومن جهة أخرى كان تخريب بيوتهم – من الخارج – بأيدي المؤمنين ليقتحموا عليهم حصونهم [2]، فقام النبي ﷺ بقطع نخلهم وحرقه عليهم [3] فكان ذلك خراب لبيوتهم بأيديهم – من جهة الداخل – وبأيدي المؤمنين – من جهة الخارج –، فكان مؤدى حصارهم والتضييق عليهم أن نزلوا للصلح على إجلائهم من المدينة بغير سلاح.

وفي قوله (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (الحشر/٢) دعوة للاعتبار لذوي العقول والمتفكرين في حال الأمة الإسلامية، فالقرآن لا يسرد قصص اليهود كسرد الحكايات، ولا يحكيها بقصد التسلية أو التشفي ولا لأجل التعيير، وإنما يرجع للتاريخ لنستقرئ منه مستقبل أمتنا، وكأن التاريخ يعيد نفسه، ففي قصصهم عبرة تنبئ عن مستقبل هذه الأمة فلا تنخدع بما وصل إليه اليهود من علو كبير، ليكون في هذه القصص إفاقة لها من سباتها وكسلها في الدفاع عن دين الله تعالى، ولتنهض وليكن

---

١) رواه الحاكم في مستدركه ج ٢ ص ٥٢٥ رقم ٣٧٩٧، وقال هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص على شرط البخاري ومسلم

٢) نقل الصابوني في صفوة التفاسير إجماع المفسرين على ذلك

٣) رواه البخاري ج ٤ ص ١٨٥٢ رقم ٤٦٠٢

قول النبي ﷺ (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله) حافزا لاستنهاضها من جديد، فمن لهؤلاء اليهود الذين يسعون في الأرض فسادا ؟ أفيكون هذا الجيل هو جيل النصر بإذن الله تعالى أم أنه جيل الخزي و الخسران ؟ لننتظر قدوم عباد الله أولي بأس شديد كما وصفهم القرآن (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)، وكما وعد في المستقبل، (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا) (الإسراء/٧).

وفي قوله (وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ) قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا – أي: فيما سبق – وكان الله قد كتب عليهم ذلك ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي) [1]، وهكذا يذيق الله تعالى بعض الناس من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لحكمة هو يعلمها، فيُرجى من عقوبتهم أن يرجعوا للحق كما أخبرنا الله تعالى بقوله سبحانه (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)(السجدة/٢١)، حيث تستهدف عقوبة الجلاء حماية الأمن القومي للدولة المسلمة من فئة خانت العهد وتتآمرت، وقد امتلكت القوة والمنعة، فلا سبيل لمعاهدتهم مرة أخرى بعد أن بدت قوتهم ومنعتهم، و لم يؤمن غدرهم، يقول سبحانه (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)(الأنفال/٥٨)، ولذلك كان جلاؤهم عن المدينة بمثابة إجراء احترازي من جهة، ووسيلة لحقن الدماء ودرء مشاكل الحروب الأهلية من جهة أخرى.

فبالرغم من أنهم أبناء وطن واحد، إلا أن مبدأ المواطنة يأبى أن يعيش على أرض الوطن من يخونه ويغدر بالعهد الذي قام عليه وأنشئ المجتمع على أساسه، فلولا جلاؤهم لوقعت فتنة أشد وأكبر، لأنهم شاقوا الله ورسوله أي خرجوا عن طاعة ولي الأمر فيما أمر الله به من الصلة وحسن الجوار في إطار عهد المواطنة، قال ابن عباس (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي بعهد من الله وعهد من

---

١) رواه الحاكم في مستدركه ج ٢ ص ٥٢٥ رقم ٣٧٩٧، وقال هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص على شرط البخاري ومسلم

الناس [1] ولذلك قال لهم النبي ﷺ (أقركم ما أقركم الله به) [2]، فكان شأنهم أن خرموا العهد، وهو الأمر الذي قد يصل إلى ما هو أشد من الجلاء، وقد يستدعي ذلك قتلهم وسبي نسائهم، فكان في جلائهم درء لمفاسد أكبر، فطالما ارتضى اليهود العهد مع النبي ﷺ فقد وجبت عليهم طاعته، فاختلاف الدين لا يبرر الخروج على الحاكم وولي الأمر طالما أن ثمة عهد ودستور يحقن الدماء ويضع الأسس المشتركة للعيش معا في وطن واحد، لكنهم أرادوا أن يغدروا بالنبي ﷺ ورفضوا عهد الله ورسوله، فلم يكن سبيل غير أن يترل الله عليهم عقابه بالجلاء بأيدي المؤمنين.

وفي قوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) دلالة على أنه يجب على أهل الذمة السمع والطاعة لولي أمر المسلمين، بالرغم من اختلاف الدين بينهما، ولأجل حفظ الوطن، فإذا ما خانوا العهد وشاقوا الصف وجب عقابهم، وفي ذلك إجمال لما حكته السيرة وكتب السنن تفصيلا عما كان منهم من خيانة وغدر وتربص بالمسلمين، فعن كعب بن مالك أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله ابن أبي – قبل أن يسلم نفاقا – ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال ﷺ " لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدهم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم " فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود إنكم أهل الحلقة – أي السلاح – والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء – وهي الخلاخيل –، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر، –وفي رواية (فلما بلغ كتابُهم إليهم: اجتمعت بنو النضير على الغَدْر)[3]– فأرسلوا إلى النبي ﷺ اخرج إلينا في ثلاثين رجلا

---

١) راجع في ذلك تفسير بن كثير للآية رقم ١١٢ سورة آل عمران

٢) رواه البخاري ج٣ ص ١١٥٥ رقم ٢٩٩٦ تحت باب إخراج اليهود من جزيرة العرب

٣) جامع الأصول لابن الأثير ج٨ ص ٢١٨

[شَرْحُ الْغَرِيبِ] الأوثان: جمع وثن، وهو الصنم – ذراريكم: الذراري الأطفال، جمع ذرية. – نستبيح: استباحتهم: نهبهم وسبيهم والتصرف فيهم. – بكيدكم: كاده يكيده: إذا مكر به وخدعه. – الحلقة: بسكون اللام: الدرع، وقيل: اسم جامع

من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبرا حتى نلتقي بمكان المنصف فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك فقص خبرهم، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم " إنكم والله لاتأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه " فأبوا أن يعطوه عهدا فقاتلهم يومهم ذلك ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير – أي في أول الأمر- ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه –أي بني قريظة-، فانصرف عنهم وغدا على بني النضير بالكتائب فقاتلهم –أي عاد لمقاتلتهم- حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها" [1].

وفي قوله (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) (الحشر/٣-٥) كناية على تشديد الحصار عليهم بقطع نخلهم اضطرارا وحرقه حتى يقع في قلوبهم الخوف والوهن، وليتيقنوا صدق عزم النبي ﷺ الإضرار بهم جزاء خيانتهم له، فالغرض من القطع هو إنزال الخزي بالفاسقين الغادرين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما :أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، فأنزل الله تعالى (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ..) [2]، وعَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ قَالَ وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

، قَالَ فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ

أَدَامَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ

سَتَعْلَمُ أَيُّنَا مِنْهَا بِنُزْهٍ وَتَعْلَمُ أَيُّ أَرْضَيْنَا تَضِيرُ)[3]

للسلاح.-[٢٢١]- حبر: الحبر: العالم الفاضل. - منصف: المنصف بالفتح: نصف الطريق، أراد: أنهم يجتمعون في موضع لا يميل إلى جهته ولا جهتهم، ليكون أعدل وأقرب إلى الأمن. - الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجيش. - الجلاء: النفي عن الأوطان. - أقلت الإبل: الأحمال، أي: حملتها. - ما أفاء الله: الفيء: ما يحصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا قتال. - أوجفتم: الإيجاف: الإسراع والحث في السير، وأراد به: الإسراع في القتال. - ركاب: الركاب جماعة الإبل فوق العشرة.

١) رواه أبو داود في سننه ج ٢ ص ١٧١ رقم ٣٠٠٤ وقال الألباني صحيح الإسناد،انظر صحيح أبي داود ج ٢ ص٥٨٢ رقم ٢٥٩٥

٢) رواه البخاري ج ٤ ص ١٨٥٢ رقم ٤٦٠٢

٣) رواه البخاري ج١٢ ص ٤٢٥ رقم ٣٧٢٨

فلما حصل ذلك، أثيرت شبهة أن المسلمين ينهون عن فعل شيء ويفعلونه، (وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ النَّخَلاتِ الَّتِي قُطِعَتْ ستٌّ نَخَلاتٍ أوْ نَخلَتان. فَقالَت اليَهُودُ: يا مُحَمَّدُ ألَسْتَ تَزْعُمُ أنَّكَ نَبيٌّ تُريدُ الصَّلاحَ أفَمِنَ الصَّلاحِ قَطْعُ النَّخْلِ وحَرْقُ الشَّجَرِ، وهَلْ وجَدَتَ فِيما أُنزِلَ عَلَيْكَ إباحَةُ الفَسادِ في الأرْضِ فَأنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]

لاسيما وأن النهي سنة متبعة حتى بعد وفاته ﷺ، لذا كان من وصايا أبي بكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان (إني موصيك بعشر لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن) [2]، والنبي ﷺ كان قد (نهى عن قتل النساء والصبيان في الغزو) [3]، لأنهم غير محاربين ولا يستعان بهم على المسلمين، فهل النخل يقاس عليهم ؟ قال محمد بن إسحاق: (إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره إما لإضعافهم بها وإما لسعة المكان بقطعها، فشق ذلك عليهم فقالوا – وهم يهود أهل الكتاب –: يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض ! ؟ فشق ذلك على النبي ﷺ ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك، فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطعه من الإثم) [4].

وعلى ذلك فإنه بالرغم من أن الصحابة رضوان الله عليهم ومعهم النبي ﷺ قاموا بإحراق نخلهم وقطعه، وليس في الإسلام ما يجيز ذلك –كأصل عام –، وإنما كان ذلك عن اجتهاد منهم، وقد نهى الإسلام بمبادئه عن ذلك، فإن القرآن لم يعنفهم فيما فعلوه، بل هم مأجورون على ما فعلوه بأعداء

---

١) تفسير البغوي ج٨ ص ٧١، التحرير والتنوير ج١ ص ٤٣٥٤ الشوكاني فتح القدير ج٧ ص ١٨٤ ،. السيرة الحلبية ٥٦٤/٢ علي بن برهان الدين الحلبي

٢) رواه مالك في الموطأ ج ٢ ص ٤٤٧ رقم ٩٦٥

٣) رواه البخاري ج ٣ ص ١٠٩٨ رقم ٢٨٥١

٤) تفسير القرطبي

الله تعالى من التنكيل بهم والخزي لهم باجتهاد منهم، فالتعليل هنا جاء بأنهم فاسقين، ولو كان قطع النخل وحرقه من الفساد أو الإفساد المنهي عنه، فإنه لو لم يحصل ذلك في هذا الموضع خصوصا، للحق باليهود فساد أكبر منه، ذلك أنه لما دب الرب في قلوبهم قبلوا الجلاء، ولولا ذلك لَمَا نزلوا على الصلح والجلاء، ولحاربوا المسلمين وغدروا بهم ولسعوا في الأرض فسادا، فكان في إفساد نخلهم حفاظ عليهم وذراريهم إرهاب لهم، لأجل حفظ ذريتهم، وذلك من مقاصد الإسلام حتى ولو كانت ذرية الكفار المحاربين، فلحوق الفساد ببيوتهم وزرعهم أخف، وذلك كله من باب تقديم المصلحة الأولى بالرعاية.

كما تجدر الإشارة إلى ملاحظة هامة، فالنبي ﷺ لم يحرق نخلهم أو يقطعه بشكل تعسفي وقسري بما يعد تدمير شامل للرقعة الزراعية، وإنما كان ذلك بقدر ما يثير الرعب فيهم فحسب، ليعلموا أنه لا يأبه لمالهم، ويقصدهم هم، ففي بعض الروايات أنه قطع ست نخلات فقط ولأجل الدفء والطبخ وتوسعة المكان للمعسكر، والدليل على ذلك أن نخل بني النضير الذي بقي بعد جلائهم كان كثيرا بحيث قسم النبي ﷺ أكثرها على أصحابه المهاجرين، وما بقي منها كان يكفيه لمؤنته هو وأهل لمدة سنة، وما بقي كان عدة في سبيل الله تعالى.. وإنما اقتضت الحاجة لإثارة الرعب في قلوبهم قطع بعض نخلهم وحرقه، فهذا جائز ما لم يصل إلى التدمير الشامل،وإنما بقدر تحقيق المقصود وحسب.

وفي قوله تعالى: (وَمَا أَفَاء[1] اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ) تذكير بأصل المال الذي غنمه النبي ﷺ من بني نضير، للتفرقة بينه بين مال الغنيمة، ذلك أنه لما كان المسلمون الذين هاجروا مع النبي ﷺ إلى المدينة قد سُلبت أموالهم وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولم تسمح قريش بخروجهم منها إلا بعد تجريدهم مما يملكون، وكانت وقعة بدر بمثابة رد اعتبار للمسلمين دون أن ينال المسلمون منها غنيمة بسبب هروب أبو سفيان بالقافلة، ولما كان اليهود قد تحالفوا مع قريش على حرب المسلمين، وخانوا بذلك العهد، فإن نتيجة ذلك، وقد غنم المسلمون مالهم دون قتال، فأضحى لهذا المال طبيعة مختلفة عن مال الغنيمة، حيث جعله الله بمثابة تعويض للمهاجرين نظير ما

---

١) أَفاءَ اللّهُ على المُسْلِمينَ مالَ الكُفّارِ يُفيءُ إفاءة، وهو ما حَصل للمُسلِمينَ من أَموالِ الكُفّار من غير حَرْبٍ ولا جِهادٍ وأَصْلُ الفَيْءِ الرُّجوعُ كأَنه كانَ في الأَصْل لهم فَرَجَعَ اليهم ومنه قِيل للظِّلِّ الذي يكون بعدَ الزَّوالِ فَيْءٌ لأَنه يَرْجِعُ من جانِبِ الغَرْب إِلى جانب الشَّرْق

انظر لسان العرب ج ١ ص ١٢٤

سُلب من أموالهم حال الهجرة، فسماه الله تعالى فيئا من جهة أنه كان في الأصل مال المسلمين ورجع إليهم، ويؤكد هذا المعنى أن النبي ﷺ لم يقسمها على من ساهم في غزو بني النضير، بل قسمها ﷺ بين المهاجرين و لم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث ابن الصمة[1].

قوله (فَمَا أَوْجَفْتُمْ [2]عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) (الحشر/٦) شرح لكيفية اكتساب هذا المال، فهذا المال لم يرجع إليهم بحرب ولا بقتال، وإنما رجع إليهم بدون سعي حثيث منهم في طلبه ولا تجهيز جيش له، فلا تزال خيولهم وأنعامهم لم تركب بعد، وإن كان المسلمون مستعدين للجهاد في كل وقت، ليعلم العالم كله أن المسلمين لم ينتصروا على أعدائهم بسفك دمائهم وإن كان بالإمكان ذلك،وإنما كفاهم الله تعالى كي ينتصروا عليهم بما قذف في قلوب أعدائهم من الرعب من المسلمين، مصداق ذلك قول النبي ﷺ (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر) [3].

قوله (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ) فالله تعالى كان يعذب الأمم السابقة بالطوفان أو الصاعقة أو الحجارة أو الخسف والزلازل..الخ، لكن الله تعالى جعل عذاب الأمم التي تخرج عن منهج الله بأيدي عباده المؤمنين منذ أمة محمد ﷺ، حيث كان أعداء الإسلام يخافون قدوم النبي ﷺ عليهم ولو كانت المسافة بينهما تحتاج لشهر من المسير، فكان هذا الخوف والرعب من أسباب النصر للمسلمين، ونحن لا نحتاج للنصر غير أن يهابنا أعداؤنا، وتلك هي قدرة الله تعالى، فالمسلم لا يستعين بقوته ولا قدرته ولا عتاده وعدته للنصر على عدوه، وإنما يستعين في ذلك بقدرة الله، فهل يعجز من كان القدير معه، بل ويسلطه على عدوه ؟ ! لا شك أن الذي يتوكل على الله ويرضى بقضائه لا يضعف أبدا، ومن استعان بقدرة الله لن يعجز مطلقا.

---

١) تفسير البغوي ج٨ ص ٧٢

٢) الوَجْفُ سُرْعة السير انظر لسان العرب ج ٩ ص ٣٥٢

٣) رواه البخاري ج ١ ص ١٢٨ رقم ٣٢٨

قوله (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تذكير بقدرة الله تعالى أن نصر عباده المؤمنين وأجلا الغادرين، وقد كان الظن أنهم لن يخرجوا، بل كان هذا ظن الصحابة بهم لشدة بأسهم (ما ظننتم أن يخرجوا)، كما كان هذا هو ظنهم بأنفسهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم)، ولكن قدرة الله تعالى فاقت تلك التوقعات وهذا الظن.

المحور الثاني

مظاهر تمسك المجتمع الإيماني بالسنة ونتيجته

قوله تعالى: {مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحشر/٧-١٠).

لا شك أن تضامن المجتمع الإسلامي وتماسكه اجتماعيا، وسيادة روح الإخاء بينهم، وتواصل أجياله جيلا بعد جيل هو سر قوته العسكرية وشدة بأسهم على أعدائهم.

وفي قوله (مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) بيان لحكم مال الفئ بخلاف حكم مال الغنيمة، وبما يقطع مداخل الشيطان عند المجاهدين، ولتجريد نية الجهاد من حظوظ النفس سبيل الله، وقطع أي طمع في غنيمة أو متاع عند المقاتلين، وبيان حكم هذه الأموال، والمقصود بأَهْلِ الْقُرَى يهود من بني نضير، وقوله (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) نفي للحرج عن رسول الله ﷺ في أن يأخذ منها نفقته وبقدر حاجته، وتقديم حقه على سائر المستحقين، فكان ﷺ (ينفق منها على أهله نفقة سنته ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله) [1]، ولم يأخذ ﷺ منها إلا قدر حاجته منها مثله مثل سائر الصحابة الذين ذكرهم الآية، فعن كعب بن مالك قال (كان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها،..، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار كانا

١) رواه البخاري ج ٤ ص ١٨٥٢ رقم ٤٦٠٣

ذوي حاجة لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة رضي الله عنها) [1].

وهذا الحكم الذي حكم الله تعالى به له ﷺ قطع كل طمع في مال الفئ، حيث كان الجهاد فيما مضى وقبل بعثة الرسول ﷺ لا تحل فيه الغنيمة، ذلك أن نية الجهاد لابد وأن تكون خالصة في سبيل الله تعالى، فلا ينبغي أن يشارك هذه النية طلب للدنيا، ذلك أن الغنيمة لم تحل لنبي قبل الرسول محمد ﷺ يقول ﷺ (أحلت لي المغانم و لم تحل لأحد قبلي) [2]، فنزل التخفيف على أمة النبي محمد ﷺ وأباح الله لها الغنيمة، لكن أنقص لهم الأجر لقوله ﷺ (ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم) [3]، وذلك لما علم فيهم ضعفا، فأضحى الضعف سبب التخفيف وتشريع الرخصة، بحل الغنيمة، لما كان الفيء ليس بغنيمة فإنه حكمه عاد لأصله وهو حظر تقسيمه على المقاتلين، حيث جعل الله له مصارف الشرعية بتوزيع الفيء على فقراء المهاجرين والمحتاجين من الأنصار.

وفي قوله سبحانه (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً[4] بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ) إظهار لعلة تقسيم مال الفئ على هذا النحو، فلم يجز تقسيمه على الأغنياء من المجاهدين، واقتصر على الفقراء منهم وذوي الحاجات، قال مفتي الديار المصرية (كى لا يكون المال الناجم عن الفئ متداولا بين أيدى أغنيائكم دون فقرائكم، والمقصود بهذه الجملة الكريمة إبطال ما كان شائعا فى الجاهلية من استئثار قواد الجيوش ورؤساء القبائل بالكثير من الغنائم دون غيرهم ممن اشترك معهم فى الحروب، وقد أبطل الإسلام كل ذلك، حيث جعل مصارف الفيء تعود إلى المسلمين جميعا بطريقة عادلة) [5].. من هنا ندرك أن الإسلام دين تكافلي من الدرجة الأولى، ونستشف قاعدة اقتصادية أرستها الشريعة الإسلامية تقوم

---

١) رواه أبو داود في سننه ج ٢ ص ١٧١ رقم ٣٠٠٤ وقال الألباني صحيح الإسناد،انظر صحيح أبي داود ج ٢ ص٥٨٢ رقم ٢٥٩٥

٢) رواه البخاري ج ١ ص ١٢٨ رقم ٣٢٨

٣) رواه مسلم ج ٣ ص ١٥١٤ رقم ١٩٠٦

٤) " الدُّولة " بضم الدال المشددة اسم لما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال، فيكون فى يد هذا تارة، وفى يد ذاك تارة أخرى

٥) تفسير الشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية

على تغليب الاعتبارات الاجتماعية في شأن تداول الأموال، فلا ثراء إلا بعد مراعاة أحوال الرعية، ولا يسوغ أن يكون في المجتمع طبقية مفرطة، بحيث تكون طبقة الأغنياء في الثريا ويكون الفقراء والمحتاجون في حالة من الكفاف يلهثون الفتات من لقمة العيش، وهكذا وضع الإسلام اللبنة الأولى لإقامة أول تشريع للتكافل الاجتماعي.

وفي قوله (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) تعقيب قرآني سريع على الحكم المذكور سلفا لقطع أي شبهة تثور عند الأغنياء حتى لا يثورون بدعوى أنهم والفقراء كانوا في غزوة واحدة، ولولا مشاركتهم لما آلت أموال الفئ لهم وهزموا اليهود، لكنه حكم الله الذي أنزله على لسان رسوله باعتبار أن السنة تحتل المرتبة الثانية في التشريع الاسلامي بعد القرآن الكريم، لأنها وحي من الله واللفظ من الرسول ﷺ، وهو أمر على عمومه لا يختص بأحداث تلك القصة وملابساتها وحسب، فعن علقمة عن عبد الله قال: (لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول قال لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[1].

بيد أن مناسبة التذكير بهذا الأمر تثور في خصوص التنافس على الدنيا، وبخاصة حينما يجادل الإسلام الاقتصاديين وغيرهم من الرأسماليين، الذي يرون نظرية اقتصادية تخالف نظرة الإسلام الاقتصادية، حيث يرون أن تداول المال بين الأغنياء يساعد على تراكم رأس المال، ومن ثم تدفق المزيد من المال مما يساعد على إنشاء مشروعات اقتصادية ضخمة تأطر عجلة الاقتصاد القومي برمته وتساعد على رفع معدل التشغيل ثم احتكار السوق والتحكم في المنافسة مع الشركات الأخرى لا سيما الأجنبية، ومن ثم تنهض البلد اقتصاديا، وكل ما يحتاجونه هو صبر الفقراء ومزيد من الصبر حتى تتوفر لهم فرص العمل في هذه المشروعات الضخمة العملاقة، وهكذا يعيش هؤلاء الرأسماليين في خيالات جوفاء، أقرب إلى الكذب منها إلى الحقيقة، ذلك أنهم حين يفعلون ذلك يقفون عند

---

١) رواه البخاري ج ٤ ص ١٨٥٣ رقم ٤٦٠٤

مرحلة التحكم في السوق واحتكار السلعة ليقوموا برفع الأسعار لا خفضها ليقضوا بذلك على المشروعات الصغيرة المنافسة، كما يتحكمون في الأجور لتتدنى إلى مستوى يحقق لهم أعلى عائد من الربح، وبذلك تظل الطبقية مفرطة، وهذا بخلاف نظرة الإسلام الاقتصادية الذي لا يعترف للاستثمار بحريته قبل استقطاع حقوق الفقراء من المال المتداول بين الأغنياء

وفي قوله (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) أمر إرشادي وتذكيري بالتقوى، لأن الأمور التي تدخل فيها حظوظ النفس تحتاج لمزيد من التذكير بالتقوى، فكم من منافق يتذرع بقاعدة العدالة والمساواة والحقوق والحريات لإبطال شرع الله تعالى لا لشيء إلا لأنه خالف هواه و لم يوافق مصلحته، فإن كان فيما يقوله مصلحة فإنها في الشرع ملغاه، ولذلك توعد الله تعالى بالعقاب الشديد، لمن يريد أن يجادل في حكم الله أو أراد أن يقسم الأموال وفقا لهواه.

وفي قوله (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)(الحشر/٨) استظهار لسبب تقسيم مال الفيء على هذا النحو، وبيان لحكمه بأنه تعويض للمهاجرين لا يستفيد منه الأنصار، فسبب تفضيل المهاجرين على الأنصار في قسمة أموال الفيء، أن الأنصار أصحاب أموال وديار فلا حاجة لهم بالمال وقد كفاهم الله ما أغناهم به، أما إخوانهم من المهاجرين فقد تركوا أموالهم وديارهم وهاجروا من النبي ﷺ لأجل نصرته، فكان من الطبيعي أن يفضلهم على إخوانهم من الأنصار في تقسيم أموال الفيء و الغنيمة باعتبار أن ذلك بمثابة تعويض لما خسروه فيما سبق، ولذلك رضي الأنصار بقسمة رسول الله ﷺ واطمئنوا أن النبي ﷺ لم يحرمهم من أموال الفيء لعدم رضاه عنهم، وإنما لأجل إعلاء الاعتبارات الاجتماعية التي أشرنا إليها، وهو ما تكرر كثيرا منه ﷺ، ولا ننسى في هذا المقام التذكير بما حصل للإنصار يوم حنين حين تكرر منه ﷺ ذلك فتحرجوا شيئا ما، حيث أَصَابَ يَوْمَئِذٍ غَنَائِمَ كَثِيرَةً فَقَسَمَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالطُّلَقَاءِ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةٌ فَنَحْنُ نُدْعَى وَيُعْطَى الْغَنِيمَةَ غَيْرُنَا فَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ فَسَكَتُوا فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ

تَحوزُونَهُ إِلَى بُيُوتِكُمْ قَالُوا بَلَى فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَأَخَذْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ) [1].

وفي قوله (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الحشر/٩) التفات للأنصار تضمن مدحا لهم وقد انشرحت صدروهم لحكم الله ورسوله في مسألة أموال الفيء، وذلك بعد أن مدح إخوانهم المهاجرين بما قدموه من تضحيات بالمال والنفس لأجل دين الله تعالى ونصرة رسوله ﷺ، ذلك لعدة أسباب منها – أولا – أن الإسلام انتشر في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها، من خلال دعوة مصعب بن عمير لأهل المدينة للإسلام وإسلام أسيد بن حضير على يديه وسائر أهل المدينة، فكان ذلك تمهيدا لانتقال مركز الدعوة الإسلامية من مكة إلى المدينة، فاستحقوا المدح للسبق في تلبية داعي الإيمان، ولاستقبالهم المهاجرين بحب.

ومدحهم – ثانيا – لحبهم إخوانهم المهاجرين أكثر من أنفسهم، يقول رسول ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [2]، لاسيما وقد انشرحت صدورهم لإخوانهم وآثروهم بحظوظ من الدنيا على أنفسهم ولو لم يكن معهم منها إلا الكفاف، وليس أعجب مما فعله الأنصار بإخوانهم المهاجرين فقد ضربوا أروع الأمثلة في الإيثار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلا أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ (من يضم أو يضيف هذا) فقال رجل من الأنصار أنا،فانطلق به إلى امرأته فقال أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال (ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما)، فأنزل الله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم

---

١) رواه البخاري ج ١٣ ص ٢٣١ رقم ٣٩٩٢

٢) رواه البخاري ج ١ ص ٢١ رقم ٢١

المفلحون) [1]، ويتم ترجمة هذه المشاعر من خلال التواد والتراحم، فعن النبي ﷺ قال (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) [2]

قوله (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ..)(الحشر/١٠)، قال ابن الجوزي (هم التابعين إلى يوم القيامة) [3]، ونظير ذلك قوله تعالى: (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الجمعة: ٣]، عن عمر بن الخطاب أنه قال في هذه الآية " استوعبت الناس " [4] قال ابن كثير عن عمر (فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق)[5]، قال ابن تيمية " فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة، واستشهد بالآية المذكور ، وقال (فَمَنْ اتَّبَعَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ كَانَ مِنْهُمْ وَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَأُولَئِكَ خَيْرُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) وَلِهَذَا كَانَ مَعْرِفَةُ أَقْوَالِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَأَعْمَالِهِمْ خَيْرًا وَأَنْفَعَ مِنْ مَعْرِفَةِ أَقْوَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ عُلُومِ الدِّينِ وَأَعْمَالِهِ كَالتَّفْسِيرِ وَأُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ خَيْرٌ مِنْ الِاقْتِدَاءِ بِمَنْ بَعْدَهُمْ وَمَعْرِفَةُ إجْمَاعِهِمْ وَنِزَاعِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يُذْكَرُ مِنْ إجْمَاعِ غَيْرِهِمْ وَنِزَاعِهِمْ "[6]

ولما كان الحب بين المهاجرين والأنصار متبادلا ومتواصلا وكان هذا هو سر تماسك المجتمع المسلم وشدته على أعداء الله تعالى، أراد النبي ﷺ أن يكون متوارثا، فعن النبي ﷺ أنه قال في

---

١) رواه البخاري ج ٣ ص ١٣٨٢ رقم ٣٥٨٧

٢) رواه مسلم ج١٢ ص ٤٦٨ رقم ٤٦٨٥ متفق عليه

٣) زاد المسير ج٦ ص ٩

٤) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج٦ ص ٣٥١ رقم ١٢٧٨٢ وصححه الألباني: إرواء الغليل ج٥ ص ٨٣ رقم ١٢٤٥

٥) تفسير ابن كثير ج٨ ص ٧٣

٦) مجموع الفتاوى ج١٣ ص ٢٤

الأنصار (لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله) [1]، تلك الوحدة في المشاعر والأخوة في الأواصر على مدار التاريخ سبيل النصر على أعداء الله تعالى،ومن حق الأخ على أخيه أن يدعو له بظهر الغيب، يقول النبي ﷺ (مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ وَلَكَ بِمِثْلٍ)[2].

قوله (وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)(الحشر/١٠) ذلك أن أقل مراتب الأخوة سلامة صدر الأخ لأخيه، فلا يحمل له غلا ولا ضغينة ولا حقدا ولا حسدا مصداق ذلك قول النبي ﷺ (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا [3]وكونوا عباد الله إخوانا) [4]، وذلك هو بداية الطريق، فلا يظن ظان أن المسلمين قادرون على هزيمة أعدائهم ولا تزال أمراض النفوس تقبع في قلوبهم، فمن رأفة الله بنا ورحمته أن جعل قوتنا في أخوتنا، ومهابتنا في أعين أعدائنا رهينة بسلامة صدورنا من شرور أنفسنا، قال العلماء: (وهذا يدل على أن المؤمن يسوءه ما يسوء أخاه المؤمن ويحزنه ما يحزنه..وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغش والغل.. والإيمان يقتضي خلاف ذلك وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء وقد مدح الله تعالى في كتابه من لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد فقال (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص/٨٣)..) [5]، والعكس صحيح، فحين يتنافس المسلمون على الدنيا وينسون أخوتهم ووحدة عقيدتهم عندئذ يترع الله تعالى المهابة منهم من صدور أعدائهم، فيفقدون أسباب النصر وتكون الغلبة عليهم وليست لهم، يقول النبي ﷺ (وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن " فقال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال " حب الدنيا وكراهية الموت) [6].

---

١) رواه مسلم ج ١ ص ٨٥ رقم ٧٥

٢) رواه مسلم ج١٣ ص ٢٦٩ رقم ٤٩١٢

٣) تدابروا: يعط كل واحد من الناس دبره وقفاه لغيره ويعرض عنه

٤) رواه البخاري ج ٥ ص ٢٢٥٣ رقم ٥٧١٨

٥) ابن رجب: جامع العلوم والحكم ج١ ص ١٢٢

٦) رواه أبو داود ج ٢ ص ٥١٤ رقم ٤٢٩٧ وصححه الألباني

المحور الثالث

فضح الاتفاق بين المنافقين واليهود، وضعف تحالفهم العسكري وظهور هزيمتهم النفسية

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} (الحشر /١١-١٧)

ففي قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) (الحشر/١١-١٢) لفت انتباه المؤمنين للتحالف القائم بين المنافقين واليهود، وأصل هذه العلاقة الآثمة وتوصيفها توصيفا دقيقا بأنها أخوة في الكفر [١]، صدق الله إذ يقول (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) (الأعراف/٢٠٢)، فهي أخوة في الظاهر لقوله تعالى (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا) لكنها غير حقيقية لقوله تعالى (وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)، فطبيعة هذه العلاقة محض تحالف عسكري هين، يبدو فيه تضامن المنافقين مع اليهود تشجيعا لهم للصد عن سبيل الله تعالى والوقوف إزاء رسول الله ﷺ موقف المعاند المحارب لدين الله.

وفي قوله (يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) هذا التحريض صادر عن المنافقين لإخوانهم اليهود، يزعمون تضامنهم معهم حتى في أحلك الظروف، ولو وصل الحال إلى إخراج

---

١) الزمخشري – الكشاف: ج٧ ص ٣٠ البيضاوي ج٥ ص ٢٨٤ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٨ رقم ٨٩

اليهود من دولة النبي ﷺ بالمدينة المنورة، وهو محض إدعاء ووعد كاذب، فإن حصل ذلك فوعودهم هباءا، لأنهم لن يخرجوا معهم بإخبار القرآن بذلك.

وقولهم (وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا) تأكيد على أن ولاءهم لليهود لا للنبي محمد ﷺ، يقول القرطبي (يعنون محمدا ﷺ لا نطيعه في قتالكم) [1]، وفي ذلك إشارة إلى أن المنافقين المندسين بين المسلمين لا يزال المسلمون يعاملونهم وكأنهم منهم ويستعينون بهم على أعدائهم، ولكنهم يخزلونهم في ذلك.

وقولهم (وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ) وعد كاذب بإثبات ولاءهم، وأنهم في تحالف عسكري معهم، فمن يعادي اليهود يكون عدوا للمنافقين، ويلتزمون برد عدوانه عليهم كما يردونه عن أنفسهم، فعدوهما الإسلام، فهؤلاء المنافقون يريدون نصرة اليهود ضد المسلمين، ولكنهم أجبن من أن يفعلوا ذلك.

وفي قوله (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) كشف للخلل القائم في هذا التحالف العسكري، والذي يفتقر إلى الصدق، هل يعقل أن يصدق المنافق في وعده مع أعداء الله وقد كذب على جند الله ؟ ! فكما حاول المنافقون خادع المؤمنين فإنهم يخادعون أهل الكتاب، لأن النفاق لا ملة له ولا دين، فلا يرتكن إلى أن قيمة خلقية ولا إلى أسس متعارف عليها، إنها فقط مجرد المصلحة، تلك هي الحقيقة التي يكشفها الله تعالى للمؤمنين، وينبئنا عن ضعف هذا التحالف العسكري، بل أحيانا قد يظن المنافقون أنهم كما انضموا لصفوف المجاهدين المسلمين على الكفار طلبا للغنيمة، فإن الدائرة قد تنقلب يوما على المسلمين، فتراهم ينضمون لأهل الكتاب ليقاتلوا المسلمين فيغنموا معهم كذلك، فإذا كان الأمر كذلك فإنهم أسرع الناس خزيا وتخاذلا، ليكون الثبات للمؤمنين والخزي والخسران على الكافرين، أي أنهم لو نصروهم ليولون الأدبار، ثم يتحقق النصر لأن المنافقين بهذا الموقف وقد انحازوا إلى جيش الكافرين المحاربين، قد عملوا بغير قصد على تمحيص الصف المسلم من الكفر والنفاق، وتلك هي بشريات النصر، فعن عبد الله بن عمر يقول كنا قعودا عند رسول الله فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتى ذكر

---

١) الجامع لأحكام القرآن ج١٨ ص ٣٤

فتنة الأحلاس فقال قائل يا رسول الله وما فتنة الأحلاس قال هي هرب وحرب ثم فتنة السراء دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني وإنما أوليائي المتقون ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة، فإذا قيل انقضت تمادت يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا حتى يصير الناس إلى فسطاطين فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده) [1].

وفي قوله (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) (الحشر/١٣-١٤) تأكيد على الهزيمة النفسية التي مني بها أعداء الله تعالى، لاسيما وقد كتب الله عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا، ذلك أنهم يعرفون أنهم ممزقون اجتماعيا، ويعرفون أن المسلمين متضامنين اجتماعيا، ولذلك فإنهم ينظرون إلى المسلمين كوحدة واحدة، ويعلمون أنهم رغم توزعهم في شتى بقاع الأرض فإنهم أمة واحدة إذا اشتكى منه عضو سارع باقي الأعضاء بتلبية حاجته، وذلك ليس قاصرا على حقبة تاريخية معينة وإنما على مر الأزمان، يقول سبحانه (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء /٩٢)، ولأنهم يعلمون ذلك فإنهم يرهبون من مسلمي الغرب كما يرهبون من مسلمي الشرق، ويرهبون من مسلمي العجم كما يرهبون من مسلمي العرب، فهم لا يرهبون منهم لأجل جنسيتهم ولا رعويتهم ولا الدولة التي ينتمون إليها، وإنما يرهبون من اتحادهم الشعوري وتواصلهم الفكري، (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال/٦٢-٦٣) نالوا تأييد الله ومعيته لأوليائه الصالحين

وقد وصلت الرهبة بأعداء الله من الذين يجاهدونهم من المؤمنين وتمكن الخوف من قلوبهم حتى أضحى خوفهم من المسلمين أشد خوفا من الخوف من الله، إنها حقيقة القلب الفارغ من الإيمان بالله تعالى، لا يدرك أن الله تعالى وحده سبحانه هو الذي يُخاف منه، وأن الرهبة لا تكون إلا منه،

---

١) رواه أبو داود ج١١ ص ٣١٦ رقم ٣٧٠٤ وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن أبي داود ج٩ ص ٢٤٢ رقم ٤٢٤٢ وفي السلسلة الصحيحة ٩٧٢

قال تعالى (وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (النحل/٥١)، فتراهم يفزعون من كل ما خلا الله تعالى، يقول سبحانه (مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)، فإذا امتلأت قلوبهم خوفا من الناس فلا يكون فيها محل لأي خوف من الله.

فلما خلت قلوبهم من الخوف من الله – سواء أكانوا اليهود أو المنافقين [١]–، امتلأت خوفا من المجاهدين المسلمين، وكانوا من قبل يخافوا أهل الكتاب لما ظنوا أن الدائرة ستكون لهم كما في قوله تعالى (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ)، فلما عاد النصر للمسلمين، أبدوا الندم والأسف على تحالفهم مع أعداء الله تعالى (فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ) (المائدة/٥٢)، يعزى ذلك لعدم فقههم لأمور دينهم ولا لحقائق الأشياء أو أمور السياسة، فهم في تخبط من أمرهم، واضطراب نفسي شديد، مثلهم في ذلك مثل أهل الكتاب المحاربين، لا يقدرون على المواجهة ولا المجابهة، إنه التواري والخنوس والاحتماء وراء الجدران، فإن كان ذلك فقههم عن دينهم وعقيدتهم، فبئس ما يفقهون.

وفي قوله (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ) يكشف الله سبحانه للمؤمنين حقيقة عسكرية ترفع الشأن المعنوي لدي المجاهدين حين يعلمون أنهم يواجهون عدوا جبانا، لا يتسم بالشجاعة ولا يعرف للتضحية معنى ؟ لا يحارب لأجل عقيدة ولا لأجل وطن – وإن زعم غير ذلك –، ولا لأجل شيء غير دنيا رخيصة، فلا يقدر أن يضحي بنفسه من أجلها، ومن ثم تراه أكثر ما يكون وراء الجدران يتحصن فيها (دبابة، الأنفاق،.. الخطوط المحصنة)، وهذا الأمر وإن كان يرفع الشأن المعنوي لدي المؤمنين فإنه يجعلهم أكثر حذرا من عدو الله تعالى، يقول سبحانه (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً) (النساء/١٠٢).

وفي قوله (بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ) فضح آخر لليهود خصوصا والمشركين على وجه العموم، يبين سبب انكسارهم معنويا، بأن كلمتهم متفرقة، وليسوا على قلب رجل واحد، قلوبهم شتى لاختلاف مقاصدهم في حربهم على المسلمين،

---

١) الألوسي ج٢٠ ص ٤٣٤ وهو قول إبراهيم النخعي نقله ابن كثير ج٨ ص ٧٥

فمنهم من يقاتل لأجل الزعامة والرياسة ومنهم يقاتل لأجل المال، ومنهم لأجل ما فيه من غرور وكبر وحقد دفين..الخ، فهم لا يحاربون عن عقيدة راسخة ولا لحماية أخلاق فاضلة متأصلة، وإنما لمحض مصالح مادية متضاربة، فتختلف مصالحهم باختلاف أهواءهم ورغباتهم، لكنها تتوحد على شيء رخيص، حياة الذل والخسران، فلا يصبرون على قتال حرصا علي الحياة في هذه الدنيا، (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (البقرة/٩٦)، يفضلون أن ينتصر عليهم المسلمين مقابل أن يحتفظوا بنفس جديد في هذه الدنيا الرخيصة التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، يخافون الموت ويحبون الحياة، فلا يقاتلونكم إلا من وراء جدر لا وجها لوجه، في حين ترى صفوف المجاهدين تقاتل جنبا إلى جنب، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) (الصف/٤)، فهل يتسم برجاحة العقل من يشتري حياة وضيعة من دنيا قليلة المتاع مقابل الحياة الخالدة الأبدية في النعيم يوم القيامة، لا شك لو أنهم فقهوا لخافوا الله، ولو عقلوا لضحوا بما يملكون لأجل الآخرة الله، ولكنه الضلال عن الحق والعمى عن الهدى.

وفي قوله (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ضرب للمثل بمن سبقهم وهم يهود بنو قينقاع، قال ابن اسحق: (أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد) [1]، وقال ابن هشام (كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست الى صائغ هناك منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا فشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع) [2]، هنا يتهكم القرآن كعادته من حال أولئك المنافقين وأتباعهم وأشياعهم من اليهود وما صاروا إليه بعد الهزيمة التي لحقت بهم، والخزي الذي أصابهم، حيث يصور حالهم بحال من قبلهم من الأمم السابقة التي أعلنت العداء للإسلام، فلم ينالوا غير وبال أمرهم، فكلما كادوا انقلب الكيد

١) ابن كثير البداية و النهاية ج ٤ ص ٣ – سيرة ابن اسحق ج ١ ص ٢٩٤

٢) ابن كثير البداية و النهاية ج ٤ ص ٣ – سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣١٤

عليهم، وكلما مكروا انقلب المكر عليهم فدحروا به، وهي إشارة من المولى سبحانه بجلاء يهود بني قينقاع ليحصل الاعتبار والاتعاظ بما سنه الله تعالى من سنن كونية، وأن مصيرهم جميعا واحد وهو الجلاء من المدينة، ذلك أن يهود بني قينقاع أجلاهم النبي ﷺ لما حصل منهم من الغدر والاعتداء على أمن الدولة المسلمة الداخلي، وكان ذلك قريبا منهم، أي قريب من حادثة بني النضير، إذ لم يمض على إخراج يهود بني قينقاع سنة حتى أجلى النبي ﷺ يهود بني النضير لاعتدائهم على أمن الدولة السياسي والخارجي وليت يهود بني نضير اتعظوا مما حصل ليهود بني قينقاع لما ذاقوا وبال مكرهم وكيدهم وتخطيطهم، فليحذر جميع اليهود مما أعده الله لهم من عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

وفي قوله (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) تشبيه العلاقة بين المنافقين واليهود بذات العلاقة بين الإنسان والشيطان، ووجه الشبه النكوث بالعهد، حيث شبه تحالف المنافقين مع اليهود وإغراءهم لهم بقتال المسلمين بحال الإنسان الذي يغريه الشيطان ليحمله على الكفر بالله تعالى، فيغره ويمنيه حتى يجعله يقع في الكفر ويهلك، فيخسر دينه ودنياه، روي الحاكم في مستدركه أن راهبا كان يتعبد في صومعة وامرأة زيَّنت له نفسها فوقع عليها فحملت فجاءه الشيطان فقال: اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها فدفنها فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زيَّنت لك فاسجد لي سجدة أنجيك فسجد له فأنزل الله عز و جل: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك) الآية [1]، وهكذا يشبه الله تعالى خسارة المحاربين من الكفار والمنافين ووبال أمرهم بمن أوقعه الشيطان في الكفر بعد أن وعده كذبا بالنجاة، قال ابن عباس: (فضرب الله هذا مثلا للمنافقين من اليهود، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام أن يجلي بني النضير من المدينة، فدس إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلوكم كنا معكم، وإن أخرجوكم كنا معكم، فحاربوا النبي ﷺ فخذلهم المنافقون، وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا العابد) [2]،

---

١) رواه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٥٢٦ رقم ٣٨٠١ وقال صحيح الإسناد و لم يخرجاه وقال الذهبي في التلخيص (صحيح) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: ضعف ابن عطية أسانيدها فلئن كانوا ذكروا القصة فإنما أرادوا أنها تصلح مثالا لما يقع من الشيطان للإنسان كما مال إليه ابن كثير.

٢) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن العظيم

وقيل (المعنى مثل المنافقين في غدرهم لبني النضير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم) [1]، قال تعالى (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(الأنفال/٤٨)، ونظير ذلك قوله تعالى (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (إبراهيم/٢٢)، قال الثعالبي: (وقول الشيطان إني أخاف الله رياء من قوله، وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف الله حق معرفته ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلى آخر) [2].

وفي قوله (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ) (الحشر/١٥-١٧)، ترتيب للنتيجة المتحصلة من اضطراب المنافقين، فلما كان المنافق لا يدين للمسلمين بالولاء والطاعة ولا للكافرين بالإخلاص والوفاء، صدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)(النساء/١٤٣)، فلم يزد المؤمنين غير الخبال، و لم يزد الكافرين إلا الخسران، قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الحج/١١)، فكان مصير المنافقين يوم القيامة مثل مصير إخوانهم الكافرين، قال تعالى (إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (النساء/١٤٠).

---

١) المرجع السابق

٢) تفسير الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن

المحور الرابع

العقيدة الإسلامية هي الركيزة الأولى لقوة المسلمين

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ * لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الحشر/١٨-٢١)

توجيه الخطاب لجماعة المؤمنين لتلتزم بالتقوى

وتكون أحرى بالتفكر في آيات الله تعالى وأسمائه

انتقلت السورة في هذا الجزء من أسلوب الحكاية وسرد الحقائق للاعتبار والموعظة بمصير الظالمين إلى أسلوب النداء والوعظ المباشر للجماعة المؤمنة ليحملها على تقوى الله ومحاسبة النفس على ما قدمت، وتأنيبها وتذكيرها بغيرها ممن نسوا حق الله تعالى حتى لا تقع فيما وقعوا فيه من الخسران، وحضها على الخشوع والتفكر بمقارنتها في بحال الجبال الراسخات الجمادات التي تتصدع من خشية الله تعالى، كما في قوله تعالى (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة/٧٤)، الأمر الذي يحمل النفس على التفكر في هاتين المقارنتين، حال الفاسقين، وحال الجبال الخاشعات، فإلى أي جهة تميل، أتميل النفس إلى هؤلاء الفاسقين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أم إلى هذه الجبال رغم قسوتها فإنها تصدعت من خشية الله ؟.

ففي قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) توجه النداء مباشرة للجماعة المؤمنة آمرا لها بتقوى الله، فهي موعظة مباشرة تحمل المسلم على مباشرة أعماله بما يرضي الله تعالى، وتحمله على حب أخيه المسلم وإيثاره على نفسه ، وسلامة الصدر معه، تنهاه عن موالاة الكافرين ومهادنتهم، ولابد لمن يتقى الله أن يحاسب نفسه، فينظر ماذا قدمت لغد أي ليوم الحساب يوم القيامة، فالمحاسبة قرين التقوى، والمحاسبة تعني حمل النفس على

المكاشفة والمصارحة والمعاتبة لإدراك أوجه التقصير وما بدر منها من معاصي نهى الله عنها، وكما أن التقوى هي التي تحمل المسلم على أن يحاسب نفسه، فتتقدم على المحاسبة، فإنها كذلك تأتي بعدها، حيث يدرك المسلم تقصيره في جنب الله بتلك المحاسبة ويصحح عمله ويتوب إلى ربه، والتعبير عن تلك المحاسبة بقوله (لِغَدٍ) أفاد بقصر الدنيا واقتراب الآخرة وكأنها الغد، ما يجعل المؤمن يزهد فيها، ويحمله على أن يعيش فيها كأنه غريب أو عابر سبيل وأنه سوف ينتقل منها غدا، فلا يهتم بأن يغنم منها، بل لابد وأن يعلم أنه سوف يتركها الغد، فليتأهب له ولا يكترث لليوم، فكأن الآخرة هي البيت الجديد الذي يجب أن يعمل له من سوف يغادر البيت القديم، فلما اشترى شيئا وضعه في البيت الجديد، وكلما أراد أن يحسن في البناء حسن في البيت الذي سوف ينتقل إليه، ويكتفي في بيته القديم بما يمضي فيه لحظات وساعات، فيصلحه بقدر ذلك، لكن همه هو غده المشرق، وإن غدا لناظريه قريب.

أما التوبة فإنها تسبق العمل وتتبعه، فمن فقه تعامل المسلم مع ربه أنه قبل أن يُقدم على أي عمل أو يشرع فيه، يستهله بالتوبة والاستغفار، فإذا أقدم على عمله وأداه بنجاح حاسب نفسه علي أي تقصير فيه، فإذا وجد تقصيرا – وهذا هو ديدنه أن يتهم نفسه بالتقصير – أتبع عمله بالتوبة والاستغفار مرة أخرى، لقوله ﷺ (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها) [1].

قوله (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أكد على أن تلك العبادة أي الملازمة بين (التقوى والمحاسبة والتقوى) من العبادات القلبية التي لا يطلع عليها إلا الله، و يثاب المرء عليها، لتعلق القلب بالله تعالى على كل حال، ولذلك حسن ختام الآية بإثبات صفة الخبير لله تعالى.

وفي قوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) تحذير من أن ينفلت المؤمن من العبادة، وحض له أن يظل مشغولا بالذكر والاستغفار والتوبة والإنابة، فإذا ما شغل بغير ذلك أضحى في غفلة عن غده، وهو ما يسهل عمل الشيطان ليوقعه في المعصية، فقد تضمن أن تميل النفس لحال المذنبين والمسرفين من العصاة الذين ألهتهم المعصية عن ذكر الله، وألهاهم الفجور عن تقوى الله، فنسوا الله ونسوا الآخرة واهتموا بالدنيا، فعبدوا الشيطان، فأنساهم ما يجب

---

١) رواه الترمذي ج ٤ ص ٣٥٥ رقم ١٩٨٧ وحسنه الألباني، الجامع الصغير ج ١ ص ١٠ رقم ٩٧

أن يعملوه لغد، وهكذا نسوا أنفسهم بنسيانهم ذكر الله، فشغلوا بهموم الدنيا ومشاكلاتها، يقول النبي ﷺ (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش[1]) [2]، فهذا أشبه بالمحاسبة على الذنب بالذنب، يقول ابن باز (إذا غضب الله على عبد تركه لنفسه، فهي كفيلة أن تهلكه)، قال ابن كثير أي: (لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل)[3]، قال القطان (أنساهم انفسهم بما ابتلاهم من الغفلة وحب الدنيا، فصاروا لا يعرفون ما ينفعها مما يضرها)[4]، وفي دَعَوَاتُ الْمَكْرُوب (اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)[5]، اللهم اخرجنا من حولنا إلى حولك وقوتك فلا حول ولا قوة إلا بك.

وفي قوله (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) نفي مطلق للمساواة بين أصحاب النار وأصحاب الجنة سواء في أمر الدنيا أو أمر الآخر، فالفوز دائما لمن اتقي، وقد يستغرب البعض هذه النتيجة، فإن كانت الآخرة خالصة للذين آمنوا، فكيف تخلص الدنيا لهم وقد قال رسول الله ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) [6]، ذلك أن الدنيا مهما ضاقت حلقاتها على المؤمن فإنه طالما لم ييأس من رحمة الله تعالى، فإنه راضي بها، وسعيد برضا الله عليه فيها، فيذوق حلاوة الإيمان ويتنعم بنور الإسلام، فإذا انتقل إلى النعيم المقيم في الآخرة وجد كل نعيم قد تنعم به في الدنيا ليس إلا سجن مقارنة بما تنعم به في الدنيا، وذلك من رحمة الله تعالى به، فقد جاءه الفوز العظيم الذي لا يقارن بأي نعيم، والعكس كذلك صحيح بالنسبة للكافر، فهو وإن كان يذوق من متاع الدنيا ما يعطيه الله له، فإنه لم يستشعر حلاوة النعمة و لم يذق طعم الإيمان فهو دائما في خوف ورعب -كما ذكرت الآيات من قبل – فإذا ما انتقل إلى عذاب الآخرة فوجئ بأنه

---

١) انتكس: أي انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة، لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر، (شيك) شيك الرجل فهو مشوك إذا دخل في جسمه شوكة، (فلا انتقش) أي دخلت فيه شوكة فلا أخرجها من موضعها. وهذا أيضا دعاء عليه

٢) رواه ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٨٦ رقم ٤١٣٦ وصححه الألباني، الجامع الصغير ج ١ ص ٥٢٨ رقم ٥٢٧٣

٣) تفسير ابن كثير ج٨ ص ٧٧

٤) تفسير القطان ج٣ ص ٣٢١

٥) رواه أبو داود مرفوعا ج١٣ ص ٢٨٣ رقم ٤٤٢٦ وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن أبي داود ج١١ ص ٩٠

٦) رواه مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٢ رقم ٢٩٥٦

العذاب الأكبر والعذاب الأخزى فكأنه كان يعيش في الدنيا في جنة مهما تعس فيها وانتكس ومهما شيك ولا انتقش، فلو عقدنا تلك المقارنة بين أصحاب النار وأصحاب الجنة لعلمنا أن أصحاب الجنة هم الفائزون في كل شيء ومن أي جهة وحيث كانت المقارنة، بما تنتفي معه المساواة إطلاقا.

وفي قوله (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) "حث على تأمل مواعظ القرآن وأن لا عذر في ترك التدبر" [1]، وفي ذلك تلميح لعبادة الخشوع المقترنة بالتفكر، فاتخاذ الجبال مثالا للخشوع، رغم أنها جمادات تتميز بشدة القسوة والصلابة التي لا تلين معه مهما تغير الزمان وتبدلت الأحوال، لكنها تخشع وتتصدع بمجرد سماع آيات الله تعالى، حض السامعين على التأهب لحالة الخشوع، وقد لانت الجبال لآيات الله خشوعا وتشققت، قال سبحانه (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)(الزمر/٢٣)، ويقول النبي ﷺ (حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله) [2]، تلك هي قلوب المؤمنين العامرة بذكر الله.

وكما أن القلوب والجلود تلين لذلك الله والدمع يذرف من خشية الله، فكذلك العقول تستنير بعبادة التفكر لآيات الله والتدبر في كتاب الله، فهي عبادة قلبية تنقل الإنسان من درك التفكير في الدنيا وهموم لا طائل منها إلى مستوى آخر من الفكر تتفتح معه حجب السماء، ويسرح فيه العقل في حياة الخلد وينشرح القلب، فيتأكد اليقين بالغيب، إنه التفكر في آيات الله تعالى المسطورة والمنظورة، فيتدبر الكتاب والملكوت حتى يتحقق الخشوع وتقشعر الجلود وتلين الأفئدة، فيتدبر أحواله وعبادته أو تقصيره ومعاصيه، إنه التفكر الذي يجدد به المسلم دوما إيمانه، يقول النبي ﷺ (إن

---

١) قاله القرطبي في تفسيره ج١٨ رقم ٤٤

٢) رواه النسائي في سنه الكبرى ج ٥ ص ٢٧٣ ص ٨٨٦٩، وأحمد في مسنده ج ٣٥ ص ٧٣ رقم ١٦٥٨١ واللفظ له، وصححه الألباني: انظر السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة ج٦ص١٧٢ رقم ٢٦٧٣، وصحيح الترغيب والترهيب ج٢ ص٣٥ رقم ١٢٣٤

الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلـــوبكم)[1]، يقول الرفاعي الحسيني (إن أول أعمال النبي ﷺ كان قبل فريضة المفروضات عبادته التفكر في آلاء الله ومصنوعاته حتى كلف ما كلف بالتفكر بآلاء الله وأخذ العبرة من الفكرة، فإن الفكرة إذا خلت من العبرة بقيت وسواسا وخيالا، وإذا أنتجت العبرة بقيت واعظا وحكمة، واحكموا الأعمال بعد التفكر على أصل صحيح وأحكموا الأخلاق بعد الأعمال على طريق مليح وزينوا كل ذلك بالنية)[2].

١) رواه الحاكم في المستدرك ج١ ص ٤٥ رقم ٥ وصححه الألباني صحيح كنوز السنة ج١ص١١٣: السلسلة الصحيحة ج٤ ص ١١٣ وحسنه

٢) البرهان المؤيد لمؤلف الشيخ / أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني ص ٦٠ – دار الكتاب النفيس بيروت طبعة أولى ١٤٠٨

المحور الخامس

تفرد الله بالملك والعظمة والكبرياء

قال {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ[1] السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الحشر/٢٢-٢٤)

تنزيه الله تعالى نفسه لتذكير عباده به بعد أن توالت عليهم أحداث الدنيا وعوارضها وابتلاءاتها

في ختام السورة إقرار بوحدانية الله تعالى وتأكيد على سعة علمه ورحمته، ثم أعيد الإقرار بوحدانيته مقترن بجملة الصلة بذكر ثمان صفات من صفاته تدل على استحقاقه للألوهية (الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن،العزيز،الجبار،المتكبر)، ثم تسبيح الله وتنزيهه عن اعتقاد المشركين، ثم إقرار ثالث بوحدانيته سبحانه مقرونا بذكر ثلاث صفات تدال على ربوبيته (الخالق،البارئ،المصور)، وتبعها أسلوب قصر توحيد الأسماء والصفات الحسنى لله تعالى، ثم عود على بدء فكما استهلت السورة بالتسبيح لله تعالى وقصر ملك السماوات والأرض عليه سبحانه، انتهت كذلك بذلك، لتختتم بالتوحيد بالله تعالى وذكر صفتين من صفاته (العزيز)، (الحكيم).

وما تجدر ملاحظته في هذا الصدد أن السورة أكثرت في ختامها من التقديس والتسبيح والتمجيد لله سبحانه وتعالى وتعداد بعض أسمائه الحسنى، وفي ذلك تذكير بسورة النصر حيث أوجب المولى سبحانه في حال النصر أن يلتزم المسلم التسبيح والاستغفار منهجا له كما في قوله (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

---

١) القدوس: التَّقْدِيسُ تنزيه اللَّه عز وجل، ويقال القُدُّوس فَعُّول من القُدْس وهو الطهارة، وفي التنزيل ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّس لك الزجاج معنى نُقدس لك أَي نُطهِّر أَنفسنا لك، ومن هذا بيت المَقْدِس أَي البيت المُطَهَّر أَي المكان الذي يُتطهَّر به من الذنوب

انظر لسان العرب ج ٦ ص ١٦٨

والتَّقْديسُ: التَّطْهِيرُ ومنه الأرضُ المُقَدَّسَةُ وبيتُ المَقْدِس – انظر القاموس المحيط ج١ ص ٧٢٨

وَالْفَتْحُ)، (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ)، فذلك هو حال المنتصرين حتى لا يلتهون بالمغنم ولا بالفيء عن حق الله تعالى عليهم، والتزام ذكره، فما شرع الجهاد في سبيل الله إلا لكي تكون كلمة الله هي العليا.

فقوله (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) يقرر طبيعة الصراع بين الحق والباطل، فلم يكن – يوما- هذا الصراع لأجل التنافس على دنيا، وإنما هو صراع عقيدة لإعلاء كلمة التوحيد، و لم تبذل الأموال والأنفس في سبيل الله تعالى إلا لأجل الإقرار بكلمة التوحيد لله، فلا إله إلا الله هي النية التي نزين بها أعمالنا وأخلاقنا وأفكارنا وخيالاتنا وطموحنا وطمعنا، "لا إله إلا الله " كلمة لو وزنت لطاشت معها كافة السجلات، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ثُمَّ يَقُولُ أَلَكَ عَنْ ذَلِكَ حَسَنَةٌ فَيُهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ) [1].

قوله (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)، يشعر المؤمن بضألة الدنيا التي ضحى بها المهاجرون أو التي آثر بها الأنصار إخوانهم المجاهدين، فهو يعلم أنها ليست إلا أحد عوالم الشهادة التي لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، ولأنهم يوقنون بعالم الغيب وأن الأجر والمثوبة عند الله تعالى، فقد آثروا ما عند الله من عالم الغيب على ما عندهم من عالم الشهادة.

قوله (هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) استظل المؤمنون من المهاجرين والأنصار بهذه الآية لما وضعوا نصب أعينهم أن الله وليهم ونصيرهم، فهو الذي تغمدهم برحمته الواسعة وفضله العظيم فوصلوا إلى ما وصلوا إلى من فضل شرف التضحية لهذا الدين والإيمان بما عند الله تعالى من عوالم الغيب والشهادة، (إنه شعور بالطمأنينة لرحمة الله والاسترواح بها،.. فالله لا يترك عباده بلا عون وهم يصارعون

---

١) رواه ابن ماجة ج١٢ ص ٣٥٦ رقم ٤٢٩٠ وصححه الألباني: صحيح ابن ماجة ج ٢ ص ٤٢٨ رقم ٣٤٦٩

الشرور والأهواء)، فلم يتركهم – الله سبحانه – في طريق هجرتهم ولا في جهادهم، وإنما ظلت رحمته معهم لا تفارقهم، فاستروحوا بها، بل واغتنوا بها عما سواها، ولم تنقصهم التضحية بكل ما معهم شيء وهم يغتنون بتلك الرحمة، قال تعالى (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس/٥٨).

قوله (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)، تأكيد على توحيد الله تعالى، لاسيما بعد إقامة الدولة الإسلامية وعند الشروع في توسيع أركانها لتشمل أقطار الأرض كلها، كما حصل بعد إجلاء يهود بني نضير وبني قينقاع، وقبيل غزوة الأحزاب وصلح الحديبية ثم فتح مكة، فقد ثبت التوحيد الخالص في قلوب الذين صدقوا وعد الله بنصر الذين آمنوا، وأنه سوف يظهر على الدين كله، ولهذا التوحيد متطلبات منها دراسة أسماء الله الحسنى والتربية على عبادة الله بها، وقد عدت السورة ثمان أسماء من أسمائه الحسنى (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ)، تفصيل ذلك على النحو التالي:-

قوله (الْمَلِكُ): صفة دالة على الربوبية، وأول دلائلها الملك، وبها يتعرف المسلم على ربه بالنظر والتفكر في ملكوته، فيدرك أن الله تعالى مستحق لهذا الملك ولا ينازعه في ذلك أحد، فهو المتصرف فيه، وهو المالك على الحقيقة، ويوم القيامة تبرز الخلائق فيسأل الملك (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيجيب (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (غافر/١٦)، فهو الله مالك يوم الدين، وإنما نحن –في الدنيا– مستخلفون في ملكه، يقول سبحانه (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (الأعراف/١٢٨)، فكان نتيجة ذلك أن أورث الله ديار بني نضير للنبي ﷺ وأصحابه.

قوله (الْقُدُّوسُ) [١]: صفة ملازمة للملك، ذلك أن القرآن عندما تحدث عن الملوك في قصة سليمان وما حكاه الهدهد عن مملكة سبأ، أشارت ملكة بلقيس لحاشيتها إلى فساد الملوك فـ (قَالَتْ إِنَّ

١) القدوس: التَّقْدِيسُ تنزيه اللَّه عز وجل، ويقال القُدُّوس فَعُّول من القُدْس وهو الطهارة، وفي التنزيل ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّس لك الزجاج معنى نُقدس لك أَي نُطهِّر أَنفسنا لك، ومن هذا بيت المَقْدِس أَي البيت المُطَهَّر أَي المكان الذي يُتطهَّر به من الذنوب

الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً) فصدقها القرآن بقوله سبحانه (وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (النمل/٣٤)، وهو ذات زعم الملائكة عندما خلق الله آدم خليفة في الأرض، قال تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة/٣٠).

فجاء الإسلام بمفهوم مغاير للملك، خلافا لما تعارف عليه الملوك والملائكة، وبالإسلام لا يؤول الملك إلى الفاسدين والمفسدين، فمن هاتين القصتين نتعلم أن الملك يعني تدبير الملك بالعدل والرحمة، وبه تتحقق مقومات الاستخلاف في الأرض، فالملك صورة من صور التمكين في الأرض، وأهل التمكين هم الذين يسعون لتطهير الأشياء، والمحافظة على قدسية المكان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول سبحانه (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج/٤١).

قوله (السَّلَامُ): فدعوة الإسلام هي السلام، يقول النبي ﷺ (لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)[1]، وقال ﷺ (أفشوا السلام تسلموا)[2].

فإذا آل الملك للذين آمنوا وسعوا جاهدين إلى ما تتقدس به الأشياء، فإنهم لا يفسدون في الأرض، بل يسود السلام بهم وتحصل الطمأنينة بعدلهم، فالله سبحانه يُطمئن عباده المؤمنين بأنه هو السلام، ويُؤمِّنهم غضبه، فمن خافه في الدنيا آمنه يوم القيامة، فهو السلام لعباده المؤمنين فمن اتبع رضوان الله له سبل السلام، قال عز وجل (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (المائدة/١٥-١٦)، فمن اهتدى بهديه له السلام، قال سبحانه (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا

انظر لسان العرب ج ٦ ص ١٦٨

والتَّقْديسُ: التَّطْهِيرُ ومنه الأرضُ المُقَدَّسَةُ وبيتُ المَقْدِس – انظر القاموس المحيط ج١ ص ٧٢٨

١) رواه مسلم ج١ ص ١٨٠ رقم ٨١

٢) رواه البخاري: الأدب المفرد ج١ ص ٣٤٠ رقم ٩٧٩ وحسنه الألباني: صحيح الأدب المفرد ٣٨٣/١ رقم ٧٥٤

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام/١٢٦-١٢٧)، فمن اهتدى للسلام في الدنيا هداه الله إلى دار السلام في الآخرة، يقول سبحانه (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (يونس/٢٥).

قوله (الْمُؤْمِنُ): وتعني في حق الله تعالى أنه أول من يؤمن برسله وكتبه وتصديقه لعباده المؤمنين، فأما إيمانه بكتبه فهو القائل في كتابه (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)(النساء/٨٧)، وقال سبحانه (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)(النساء/١٢٢) [١]، وأما إيمانه برسله ففي قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) (إبراهيم/٤)، وقال سبحانه (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء/١٠٧)، وأما تصديقه لعباده المؤمنين، عن أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيد أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا قَالَ الْعَبْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ) قَالَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ) وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ) قَالَ (صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي) وَإِذَا قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ) قَالَ (صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا شَرِيكَ لِي) وَإِذَا قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ) قَالَ (صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِي الْمُلْكُ وَلِيَ الْحَمْدُ) وَإِذَا قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) قَالَ (صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي)[٢]، كما أن تصديقه بعباده التائبين أنهم يعودون إلى ربهم منيبين تائبين مستغفرين، يقول النبي ﷺ (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) [٣]، حتى إن المكذب بهذا الدين ليصدقه حينما يسود السلام فيعلم أن الإسلام دين سلام و لم يأت بإفساد في الأرض، وأنه جاء ليحقق مصالح العباد وخيري الدنيا والآخرة، هنا يصدق وعد المؤمن أن هذا الدين يظهر على الدين كله.

---

١) ابن عساكر:: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص ٣٩٤ دار الكتاب العربي – بيروت ١٤٠٤

٢) رواه ابن ماجة ج١١ ص ٢٣٨ رقم ٣٧٨٤ وصححه الألباني: صحيح ابن ماجة ٣١٧/٢

٣) رواه مسلم ج ٤ ص ٢١٠٦ رقم ٢٧٤٩

قوله (الْمُهَيْمِنُ)[1]: اسم فاعل للموصوف بالهيمنة على غيره، فعله هيمن يهيمن هيمنة، والهيمنة على الشيء السيطرة عليه وحفظه والتمكن منه [2]، ذلك أن كل شيء بقضاء الله وقدره، ولا شيء خارج عن سيطرته، فالله هو المهيمن على خلقه فلا يخرج شيء عن مشيئته [3]، يقول سبحانه (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (سبأ/٣)، وهذه الصفة لم يذكرها القرآن في غير هذا الموضع إلا في حق كتاب الله تعالى، إذ يقول سبحانه (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) (المائدة/٤٨)، الأمر الذي نستشف منه المنهج الذي يحدد العلاقة بين المؤمنين وغيرهم، بأن الشريعة الإسلامية هي الشريعة الحاكمة لكل الشرائع، ليكون القرآن الكريم هو الإطار العملي الذي يحكم هذه العلاقة، ويكون الاحتكام لكتاب الله هو الواجب دون اتباع لأهوائهم، وإن جاز تحكيم شرعهم فيما يخص أمورهم.

قوله (الْعَزِيزُ): يدل على أن هيمنة كتاب الله تعالى على ما عداه لا يخل بحرية الاعتقاد، حيث يقطع الشك في أن الله تعالى ينتفع بشيء من ذلك، فالله سبحانه غني مستغن عن خلقه، وعزيز عليهم، (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(يونس/٦٥)، وكذلك عباده المؤمنين فإنهم أعزاء بدين الله تعالى، ولا ينتفعون بشيء من الملك الذي ملكه الله لهم،يقول سبحانه (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (المنافقون/٨)، فلا يستمدون عزة من مُلك جعله الله في أيديهم لا في قلوبهم، قال تعالى (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ

---

١) ففيه أربعة أقوال:- أحدها: أنه الشهيد، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والكسائي. قال الخطابي: ومنه قوله تعالى { ومهيمنًا عليه } [المائدة: ٤٨]، فالله الشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول أو فعل.

والثاني: أنه الأمين، قاله الضحاك، قال الخطابي: وأصله: مؤيمن، فقلبت الهمزة هاءً، لأن الهاء أخَفُّ عليهم من الهمزة.

والثالث: المصدِّق فيما أخبر، قاله ابن زيد.

والرابع: أنه الرقيب على الشيء، والحافظ له، قاله الخليل. قال الخطابي: وقال بعض أهل اللغة. الهيمنة: القيام على الشيء، والرعاية له.

زاد المسير ج٦ ص ١٥

٢) منهج السلف في فهم الأسماء الحسنى ج٢٤ ص ١٣

٣) منهج السلف في فهم أسماء الله الحسنى ٢٢

عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) (المائدة/٥٤)، وإنما يعز عباده المؤمنين في الدنيا لأنهم أعدل من الكافرين وأقسط، ولا يعز الكافرين لأنهم لا يعدلون ولا يقسطون.

قوله (الْجَبَّارُ): يعذب من خرج عن طوعه، واستطال على خلقه، فيسلط عباده المؤمنين علي من يشاء من الظالمين (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)، يقول سبحانه (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا) (الكهف/٨٦-٨٧).

وهذه الصفة ممتنعة عن المؤمنين، يقول سبحانه (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) (ق/٤٥)، وصفة الجبار وإن كانت ممتنعة على عباد الله فإنه ملازمة للجاحدين بآيات الله (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (هود/٥٩)، يقول النبي ﷺ (احتجت النار والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عز وجل لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء وربما قال أصيب بك من أشاء وقال لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها)[1]

فحد المؤمن العزة بالله وبالإسلام الذي كرمه الله به، بلا تكبر في الأرض ولا تجبر على عباد الله، يقول النبي ﷺ (يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون)[2].

قوله (الْمُتَكَبِّرُ): صفة استأثر بها الله لا ينازعه في كبريائه وعزته أحد، يكسر أنوف الجبابرة والمتكبرين، فالكبرياء رداءه، وهو مستحق لذلك،فلا يتكبر إلا هو، يقول النبي ﷺ (العز إزاره

١) رواه مسلم ج١٣ ص ٤٩٣ رقم ٥٠٨١

٢) رواه مسلم ج١٣ ص ٣٧٣ رقم ٤٩٩٥

والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته) [1]، وفي رواية (يقول الله سبحانه الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، من نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم) [2].

وتكبر الله صفة كمال في حقه، فهو الإله الحق، وليس أكبر من الله شيء.

قوله (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) نزيه لله تعالى نفسه عن شرك بعض الناس به، رغم ضعفهم وحاجتهم وفقرهم، لكنهم يستكبرون ويتعاظمون ويختالون بأنفسهم، حتى أنهم لينصبون أنفسهم آلهة تحكم وتعدم وتقتل وتسفك الدماء باسم أهواءهم ورغباتهم، يقول سبحانه (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) (النساء /٤٨)، أما من لم يعظموا أنفسهم لدرجة التأليه، فإنهم يخضعون لمن ينصب نفسه ندا لله تعالى، فيدينون له بالولاء والطاعة، يقول سبحانه (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) (البقرة/١٦٥)، ويقول سبحانه (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (فصلت/٩)، فعن عبد الله قال سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله قال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) [3]، قال العلماء: الند هو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره [4].

قوله (هُوَ اللَّهُ): اسم جامع لكل الصفات، واستئناف لما وصف الله به نفسه من صفات الثناء والكبرياء والعظمة والجلال، ليتحصل الاستدلال بتلك الصفات على الله تعالى، ولأنه سبحانه جمع تلك الصفات لذاته وأضاف الأسماء لنفسه استطاع المؤمنون أن يتعرفوا بها على ربهم، فقد دل على ذاته بقدرته على الخلق المبرأ عن العيب والتصوير، فاحتج بما شاهدوه من عالم الشهادة أنه مستحق للألوهية وحده دون سواه.

---

١) رواه مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠

٢) رواه ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ وصححه الألباني

٣) رواه البخاري ج١٣ ص ٣٩٤ رقم ٤١١٧

٤) ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج١٣ ص ٤٩١

قوله (الْخَالِقُ): وصف نفسه بصفات القدرة والإبداع والإعجاز في الإيجاد من عدم على غير مثال سبق، ولا خالق سواه، ولذلك لم ينكر المشركون أن الله خلقهم، لأنها حقيقة لا يستطيعون إنكارها أو المجادلة فيها، يقول سبحانه (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (الزخرف/٨٧)، وقال تعالى (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف/٩).

قوله (الْبَارِئُ): أي أنه خلق، وخلقه بريء من العيب والنقص، فإن جاز القول بأن صنعة البشر لا تسلم من العيوب فإن ذلك محال في حق الله، فما يخلقه الله تعالى مبرأ من العيوب والنقائص، فليس معنى أن الثعبان يمشي على بطنه أن به عيب في خلقته، فكل مخلوق ميسر لما خلق له، قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (النور/٤٥)، ألم تر أن الحمار يمشي على أربع كي يحمل أثقالا، وقد قال الله في كتابه (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا...وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ...وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)(النحل/٨).

قوله (الْمُصَوِّرُ): سبحانه صور الإنسان من الإنسان، و البهائم من البهائم ، والطيور من الطيور، والحشرات من الحشرات...الخ خلق أجناسا شتى وحيوانات مختلفة، وجعل الأنسال تتناسل على ذات صفات أسلافها، فلو كان الكون صدفة كما ادعى البعض، فكيف تتكرر الصدفة على نحو متطرد ؟! إنه الله الذي صور كل ذلك.

قوله (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى): إجمال واختصاص بأحسن الأسماء والصفات، لتنصرف العبادة له سبحانه بما سمى به نفسه، فلا يشاركه فيها أحد من خلقه، يقول عز وجل (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأعراف/١٨٠)، ويقول النبي ﷺ (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة) [١]، قال النووي (اتفق

١) رواه البخاري ج ٢ ص ٩٨١ رقم ٢٥٨٥

العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء) [1]، والمعنى أن أسماء الله تعالى كلها حسنى، وغير محصورة فيما نعلم، بدليل قوله ﷺ (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) [2].

وتجدر الإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى متصف بها على وجه الكمال والجلال، بينما البشر حين يتصفون بشيء من ذلك فيكون على وجه النقص لا الكمال، ولذلك كل أسمائه معرفة بال، قال ابن حجر " التعريف في الأسماء للعهد فلا بد من المعهود [3]، وقال العلماء: "أن (أل) في أكثر أسماء الله هي للعهد الذهني، ولا بد في الأسماء الحسنى من اعتبار المقام، وسياق الكلام لتعيين أن المراد بهذا الاسم هو ربٌّ العالمين، لأن أكثر الأسماء الحسنى يطلق لفظُها على بعض العباد؛ كالمِلك والعزيز والعليم والسميع والبصير، فلا يتميز هذا من هذا إلا في الكلام المركب، ومن الأسماء الحسنى ما لا يكاد يطلق لفظه في الاستعمال على المخلوق؛ كالقدوس والرحمن، وأما الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى (الله) فلا يطلق إلا على الله ربِّ العالمين " [4]

"وكل اسم من أسمائه دال على كمال عظمته، وبذلك كانت حسنى، أما الأسماء التي لا تدل على صفات الكمال، فليست بحسنى، وكذلك إذا اشتركت دلالتها بين الكمال والنقص، أو دلت على مجرد علم محض، مثل إبراهيم، وزيد، فلا تكون حسنى حتى تدل على كمال الصفة التي اشتق منها الاسم، مثل "العليم" فإنه يدل على أن له علمًا عامًا محيطًا بجميع الأشياء، لا يخرج عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ومثل "القدير" الدال على قدرته التي لا يعجزها شيء، و"الرحيم" الدال على رحمته العظيمة التي وسعت كل شيء.[5]

---

١) الشرح على صحيح مسلم

٢) رواه أحمد في مسنده ج ١ ص ٣٩١ رقم ٣٧١٢ وصححه الألباني انظر السلسلة الصحيحة ج ١ ص ٣٨٣ رقم ١٩٩

٣) فتح الباري ج١١ ص ٢٢١

٤) رابط المادة http://iswy.co/e452i : المصدر: موقع الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك

٥) الغنيمان: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ص ١٨٠

"وإحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا، وهي إما علم بما كونه، وإما علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه. فمن أحصى أسماء الله كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم"[1]، قال بن بطال (الإحصاء يقع بالقول ويقع بالعمل، فالذي بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والمتعال والقدير ونحوها فيجب الإقرار بها والخضوع عندها وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها كالرحيم والكريم والعفو ونحوها فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها فبهذا يحصل الإحصاء العملي، وأما الإحصاء القولي فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها ولو شارك المؤمن غيره في العد والحفظ فان المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها) [2]..

فضلا عما تقدم فإن المولى سبحانه حين يصف نفسه ويسمي ذاته، فإنه يتصف بذلك على سبيل الحسن كل وقت وفي كل حال، بينما عباده إن اتصفوا ببعضها فليس ذلك بالنسبة لهم حسنا في كل حال وفي كل وقت، فالرحمة مطلوبة منهم، لكن الرحمة في موطن الغلظة ذم وليست بمدح، لذلك أغلظ النبي ﷺ في حد السرقة و لم يرحم أحدا ، فقال ﷺ (وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) [3]، كذلك الغلظة في موطن الرحمة ذم وليست مدحا، فقد قبل النبي ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس جالسا فقال الأقرع (إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال (من لا يَرحم لا يُرحم) [4]

ولأننا مكلفون بالتعبد لله تعالى بما ثبت من أسمائه الحسنى بأية من كتاب الله أو حديث نبوي صحيح، فقد عد بعض العلماء من أسماء الله الحسنى ما رواه الترمذي عن النبي ﷺ قال (هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل

---

١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: نخبة من العلماء الطبعة: الأولى الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية١٤٢١هـ.

٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري.

٣) رواه البخاري ج ٣ ص ١٢٨٢ رقم ٣٢٨٨.

٤) رواه البخاري ج ٥ ص ٢٢٣٥ رقم ٥٦٥١.

السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور)[1]، والحديث اختلف العلماء في رفعه للنبي ﷺ أم أنه من تفسير الراوي[2]، وأيا كان الأمر فإن هذه الأسماء وردت متفرقة في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ، ولا غرو في صحتها دون القول بحصرها وقصرها على ذلك.

قوله (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) عود على بدء، فقد ابتدأت السورة بتقرير لحقيقة تسبيح الكون لله تعالى، وهي حقيقة لا ينكرها إلا جاحد أو مشرك، واختتمت السورة بتكرار هذه الحقيقة مع التغيير لفعل (التسبيح) من زمن الفعل من الماضي (سبح) إلى المضارع (يسبح)، للإشعار بأن المُلك لا يزال يسبح لله، في الوقت الذي لا يزال المجاهدون يقسمون أراضي الفيء، فلا ينشغلوا بذلك عن ذاك، وإنما عليهم أن يلحقوا بمنظومة تسبيح الكون كله لله.

---

١) رواه الترمذي ج ٥ ص ٥٣٠ رقم ٣٥٠٧، ورواه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ٦٢ رقم ٤١، وقال: (هذا الحديث خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه، و العلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله وذكر أسامي فيه، و لم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة، فإني لا أعلم اختلافا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب و علي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب ثم نظرنا فوجدنا الحديث قد رواه عبد العزيز بن الحصين عن أيوب السختياني وهشام بن حسان جميعا عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بطوله)، وقال الذهبي في التلخيص: لم يخرجا الأسامي لتفرد الوليد بها وليس ذا بعلة فالوليد أوثق وأحفظ من أبي اليمان وعلي بن عياش، ورواه ابن حبان ج ٣ ص ٨٨ رقم ٨٠٨ وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

٢) قال البيهقي ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة ولهذا الاحتمال ترك الشيخان إخراج حديث الوليد في الصحيح وقال القاضي أبو بكر بن العربي لا نعلم هل تفسير هذه الأسامي في الحديث أو من قول الراوي قلت والدليل على ذلك اختلافها وإن كان حديث الوليد أرجحها من حيث الإسناد.

انظر تلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني ج ٤ ص ١٧٣.

قوله (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ختام السورة كبدايتها، فكما ناسب الاستهلال بذكر صفتي العزيز الحكيم في أول السورة حيث عز عباده المؤمنين على أهل الكتاب والمشركين، واقتضت حكمة الله إعادة تقسيم الأرزاق ليخص المؤمنين بأموالهم بعد أن سلبها منهم الكفار والمشركين تنكيلا لهم وعقوبة بهم، فإنه سبحانه يذكرنا في نهاية السورة بأن نبتغي العزة منه سبحانه وتعالى، فنتعبد ونتزلف له باسمه العزيز، كما أن له الحكمة البالغة في تصريف الكون بيده حيث يشاء، قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: ٢٦).